466

عبد الوهاب مطاوع

(أعمال لم تنشر من قبل)

A.M.

طائر الحب القديم



الدار المصرية اللبنانية

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية





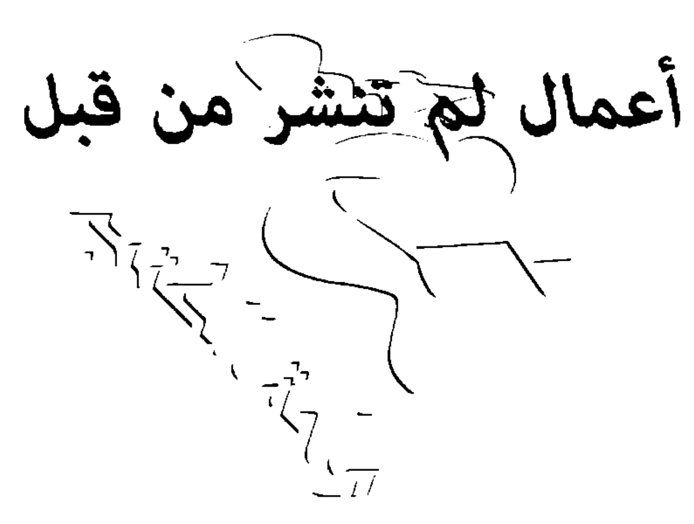
Dr. Ahmed Mady

د. أحمد ماضي



عبد الوهاب مطاوع

أعمال لم تنشر من قبل



طائر الحب القديم

الدار المصرية اللبنانية

طائر الحب القديم

أكتب إليك لأروي لك قصتي ولتشاركني فيها أحس به الآن، وأطلب مشورتك فيه. فمنذ سنوات بعيدة كنت أقيم مع أسرتي في بيت قديم بحي المنيرة لا يضم سوى ست شقق، فكان من الطبيعي أن يتعارف الجيران وأَنْ ينشأ الأبناء جميعا أصدقاء بحكم المنشأ والملعب الواحد الذي يضمنا في الفناء الخلفي للعمارة. وهكذا نشأت في أسرة كبيرة العدد تضم كل سكان هذه العمارة. وعرفت كل أفرادها وأحببتهم وكان أأثرهم بمودتي اثنان، سأذكرهما باسمين مستعارين هما «محمد» وشقيقته «ياسمين» وانضمت لنا فيها بعد شقيقتي الصغرى جيهان، فتزاملنا في المدرسة الابتدائية ثم فرقت بيننا المدرسة الإعدادية، فدخلت مع محمد مدرسة قريبة ودخلت ياسمين وجيهان مدرسة أخرى، واستمرت صداقتنا قوية حتى ناهزنا معًا سن المراهقة. فبدأت نظرتي إلى ياسمين تكتسب أعماقا جديدة، ثم لم ألبث أن اعترفت بيني وبين نفسي إني أحبها بكل اندفاع الصبا ومثالياته، وأدركت أنها تبادلني المشاعر البريئة نفسها، ونظرًا لاستقامتي فإن علاقتنا لم تخرج أبدًا عن حدود العلاقة الأخوية بين صبيين نشآ معًا، ويعتبر كل منهما الآخر شقيقه أو شقيقته فلم نتبادل أبدًا كلمات الحب والخطابات الغرامية، لكن كلًا منا كان

يعرف تمامًا أنه مرتبط بالآخر برباط وثيق.. وحين بلغت السابعة عشرة، من عمري وبلغت هي الخامسة عشرة أقدمت على خطوة جريئة مازلت أعجب لها حتى الآن، فقد توجهت إلى شقتها وقابلت أمها وهي صديقة أمي الحميمة وصارحتها برغبتي في خطبة ابنتها فور حصولي على الثانوية العامة والتحاقي بالجامعة، على أن تنتظرني إلى ما بعد التخرج، فضحكت الأم طويلًا وقالت لي إنها أختك وقد تربيتما معًا، لكن المشوار طويل، ولا يعرف أحد ماذا ستحمل الأيام غدًا. لهذا فالأفضل هو الاهتمام بالدراسة والمستقبل بعد ذلك في يد الله، واعتبرت هذا وعدًا منها وبدأت أعتبر نفسي خطيبها بصفة غير رسمية، وظللت كذلك حتى دعاني أبي عصر يوم للجلوس معه في «الفراندة»، ثم فاتحني بإشفاق في أنه علم برغبتي في خطبة ياسمين، وقال لي إنه لا يعترض على ذلك لأن أباها صديقه الحميم لكن المشوار طويل وقد يشق على الفتاة الانتظار كل هذا الوقت، وانتهى من حديثه بأن طالبني بأن أترك أمر المستقبل لله وأن أهتم بدراستي وليهيئ لنا الله الخير على يديه، وكان أبي بعيد النظر فما إن حصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية التجارة والحتقت فتاتي بكلية الآداب وهممت بأن أعيد التحدث مع أبي في الموضوع حتى عدت ذات يوم إلى البيت فوجدت محمد ينتظرني في شقتي مع أبي وأمي ليدعوني للخروج معه في مشوار مهم، فخرجنا وتمشينا حتى كوبري قصر النيل وأنا أنتظر أن يفاتحني في الموضوع المهم ثم أخيرًا تكلم فكان ما توقعته وهو أن شقيقته سوف تخطب الليلة لضابط شرطة من أقارب أبيه، وأنه آثر ألَّا يحضر قراءة الفاتحة لكيلا يتركني وحيدا أسمع الزغاريد وأتألم، وأنه يقدر مشاعري لكن أباه يفضل الزواج المبكر للفتاة كعادة أسرته إلخ.. وأنها سوف تتزوج خلال فترة قصيرة وتتوقف عن الدراسة الجامعية وتصحب زوجها إلى مقر عمله في المنيا. وهوت عليَّ الأخبار كالمطارق.. لكني حاولت التماسك أمامه وتظاهرت بأني رتبت نفسي على ذلك

منذ زمن طويل.. وقدرت له في أعماقي إخلاصه لي ورجولته ومشاعره، وتمت كل الخطوات بسرعة كبيرة. وتجرعت المرارة وحدي لكن صداقتي بشقيقها لم تتأثر بل لعلها تعمقت أكثر، فواصلنا التقدم في الدراسة حتى تخرجنا معا وجاءنا تعيين القوى العاملة في وقت واحد فعينت أنا بالبنك الأهلي وعين هو في وزارة الإعلام.

وخلال هذه السنوات رأيتها عدة مرات في العمارة في زيارات عائلية مع زوجها أو وحدها، ورأيتها حين عادت للولادة في بيت أسرتها مرتين وفي كل مرة أراها فيها يخفق قلبي ولا ينطق لساني إلَّا بكلمات المجاملة المعتادة بين الجيران القدامى. ثم تقدم محمد يطلب يد شقيقتي فكنت سفيره إلى أبي في طلبها وزكيته بحرارة وتمت الخطبة والزواج في شقة حديثة بالجيزة، أما أنا فلم أتزوج وبلغت سن الثامنة والعشرين بغير تجارب عاطفية ولا رغبة في الزواج، وبدأت أمي تلح عليَّ في الزواج وبدأت أستجيب للفكرة، وعن طريق بعض الأقارب رشحت لي أمي مدرِّسة من خريجات معهد التربية البدنية ورأيتها فوجدتها مقبولة الشكل ولا عيب فيها، فوافقت عليها فتزوجنا بعد شهور في شقة معقولة بحي المهندسين، وبعد زواجنا فاتحتني زوجتي في تأجيل الإنجاب لأنها مرشحة للإعارة في دولة عربية قريبًا وسوف يعوقها الإنجاب عنها فوافقت على رغبتها وجاءت الإعارة فعلًا بعد عام من الزواج، فطلبت مني مصاحبتها على أن أبحث عن عمل هناك فلم أحبذ الفكرة لأني تقدمت في عملي ولا أريد أن أضيِّع فرصتي في الترقية. فسافرت وحدها وأصبحت تعود كل صيف فتودع مدخراتها في البنك وتعيش معي شهورًا ثم ترجع لعملها، وهكذا حتى انقضت سنوات الإعارة. ووجدت نفسي قد بلغت الثالثة والثلاثين ولم أنجب ففاتحتها في الأمر لكنني لم أجد لديها

حماسة. وبدت مترددة فسكت أسابيع وفاتحتها في الأمر مرة أخرى ففاجأتني بطلب بسيط هو الطلاق. الطلاق.. نعم. لماذا؟ لا شيء. أنا لا أحبك وأنت لا تحبني، ولو كنت كذلك لما تركتني أسافر وحدي 4 سنوات ولحاولت أن تبحث عن عمل معي في الخارج لكيلا نفترق.. ولكي ندخر معًا ثروة نبدأ بها حياة راقية سعيدة إلخ.. ورغم صدقها فيما قالت فإنني لم أشأ أن أستسلم للشيطان فاستدعيت أمها وأبلغتها فوجدتها تعلم بالأمر كله وتوافقها، فأردت ألَّا أقصِّر في حقها وفي حق نفسي فاستدعيت شقيقتي ومحمد وتركتهما يناقشانها فعادا إلى بعد قليل بإصرارها على الطلاق.

فاستخترت الله وطلقتها وأعطيتها كل حقوقها بلا منازعات، وحملت هي أثاثها إلى شقة تمليك جديدة اشترتها، ولم تنقض شهور العدة حتى سمعت أنها تزوجت من زميل سابق لها في الإعارة لديه مدخرات وسيبدآن معا حياة راقية وتعجبت لنفسي، أني رغم ذلك لم أحزن لطلاقها أو لزواجها ولم تمض شهور حتى كنت قد نسيتها كأنها لم تدخل حياتي ولم أعش معها خمس سنوات من عمري؛ وتفرغت لحياتي فأعدت تأثيث شقتي وحققت في عملي أكثر مما كنت أحلم به. بل وانتقلت في وظيفة أكبر بأحد البنوك الجديدة، وانتظمت حياتي ما بين البنك ومسكني.. وبيت أسرتي في المنيرة وبيت شقيقتي، وكلما زرت أبي الذي أحيل إلى المعاش منذ سنوات سألني لماذا تعيش وحدك وأنت قادر على الزواج. فاتهرب من الإجابة وأغير الموضوع. ثم أفكر في كلامه فأجده منطقيًّا وأحاول النظر حولي عسى أن يخفق قلبي بحب إحدى زميلاتي أو معارفي فأفشل في كل مرة، فمن تقترب مني في العمل أفر أنا منها. ومن أحاول التقرب منها لا أجد لديها استعدادًا أو قبولا. وهكذا مضت بي السنوات حتى قاربت الأربعين وهي مرحلة حرجة من العمر يحس من يبلغها أنه قد أنهى مرحلة الصعود وبدأ مرحلة الانحدار على الجانب

الآخر من عمره وصحته وكل شيء، فبدأتْ تلح عليَّ فكرة الزواج وطالبت شقيقتي بالبحث عن عروس. فرشحت لي فتاة في السابعة والعشرين من جيرانها والتقيت بها وتحادثنا طويلًا، وتكررت الزيارة ثم بدأنا نتحدث في التفاصيل. واستقر الرأي على أن نقرأ الفاتحة بعد ثلاثة أيام وخرجت من بيتها سعيدًا ومعي محمد وشقيقتي، وقررنا أن نذهب إلى المنيرة لنبلغ أبي وأمي ووصلنا إلى البيت فأحسسنا بشيء غير عادي فيه، وبدافع غريزي اتجه محمد إلى شقته ونحن معه. ففوجئنا بأمه تبكي وأبيه في حالة وجوم، وعرفنا أن زوج شقيقته قد لقى مصرعه في حادث سيارة على الطريق بين أسيوط وسوهاج التي انتقل إليها منذ سنوات. فغادرنا البيت على الفور إلى قطار الصعيد وبقيت في سوهاج حتى انتهت المراسم وتركت شقيقتي ومحمد هناك، وعدت لعملي بعد يومين واستقر رأي الأسرة على أن تبقى ياسمين في سوهاج إلى أن يؤدي ابناها الامتحانات ثم تعود معهما إلى القاهرة، ويلتحقان بالمدرسة فيها، تَمَّ ذلك فعلًا.

وفي أوائل الصيف جاءت الأرملة وأبناها فتاة في الخامسة عشرة، وفتى في الثالثة عشرة، واستقروا جميعًا في بيت الأسرة بالمنيرة وبدأ ترددي على بيت المنيرة يزداد وبدأت أرى صديقة العمر القديمة كثيرًا، فأحس بنفس إحساسي القديم وعمري 15 سنة، ولا تسألني ماذا تم في مشروع الخطبة لأني بعد عودتي من سوهاج وبغير أن أستطيع المقاومة وجدت نفسي وقد صدَّتْ تمامًا عن هذا الموضوع، فاعتذرت لأسرة الفتاة عن إتمام المشروع. ولم يسألني أحد لماذا فعلت ذلك فحالتي كانت واضحة للعيان فأنا لا يمضي يوم دون أن أزور المنيرة، وأرى الصديقة القديمة وأضع نفسي في خدمتها وخدمة ابنيها وأفتش في نظراتها عن آثار للحب القديم، فأسعد أحيانًا وأكتئب أحيانًا أخرى حين ألحظ استغراقها في الحزن والهموم.

وبعد مرور عام على الوفاة قررت أن أضع حدًّا لعذابي ففاتحت شقيقتي في الأمر فوجدتها قد فاتحتها فيه مرارًا وتحدثنا فيه طويلًا، وأبدت فتاتي تخوفها من أن يتأثر ابناها بالزواج أو أن يضايقهما عمهما إذا تزوجت مما قد يحرمهما من حقهما في قطعة أرض تحت سيطرة العم، ووجدت نفسي انتفض غضبًا وتوجهت إلى بيت المنيرة، وقابلتها وانتحيت بها جانبًا وقلت لها إنني لم أنجب وسوف أكون أرحم أب لهذين الابنين لأنهما ابناك، وإنني سأدافع عن حقوقهما بكل الوسائل وسوف أتحمل المسئولية عن ذلك، ولو اضطررت لتعويضهما ماليا عن أي حق يضيع عليهما بسبب الزواج، وإنني انتظرتها 24 عاما حتى جمعت بيننا الأقدار مرة أخرى، ولن أفرط فيها بعد ذلك، وبعد مرافعة طويلة وجدتها تبتسم والدموع في عينيها وتطلب إمهالها بعض الوقت لكي تمهِّد للأم مع ابنيها وانتظرت أسابيع أخرى، حتى جاءتني شقيقتي تطلب مني الاستعداد للزواج وكنت مستعدا من الأصل، فتم زواجنا المؤجل منذ 24 عاما وهي في الثامنة والثلاثين وأنا مطلق بلا أبناء، فإذا كان قد أحزنني شيء فهو أنها أصرت على أن يتم العقد بغير احتفال وأن ننتقل في هدوء إلى شقتي، وكنت أريد أن احتفل بزواجي بما يتناسب مع صبري الطويل.

لكني سلَّمت برغبتها حرصا على مشاعر الابنين. والآن يا سيدي لقد مضى على زواجنا عشرة شهور، وقد أصبحت في أسرة صغيرة مكونة من زوجة أحببتها وعمري 15 سنة وابنة رقيقة في الخامسة عشرة من عمرها، وابن يافع في الثالثة عشرة، أجلس معهما كل مساء في الشرفة.. وأراقب مذكراتهما وألبي مطالبهما وقد تجاوزا فترة الحساسية الأولى وبدأ يأنسان لي ويحبانني، وعلى عكس ما كانت زوجتي تخشاه فإن عم ابنائي كان أفضل مما تصورت فسلم لي بأن الزواج ستر للمرأة، وأن كل ما يعنيه هو أن يطمئن على راحة الأبناء وعرض عليَّ الاستمرار في رعاية الأرض لحساب الأبناء والزوجة أو شرائها بسعر السوق إذا أردنا ذلك،

ففضلت البيع، وتم ذلك وبأعلى سعر ممكن ووضعت المبلغ بنفسي باسم الأبناء والزوجة حسب الأنصبة الشرعية في البنك الذي أعمل به، وهكذا احتفظنا بعلاقة طيبة معه رغم كل شيء وهو يزورنا ونحن نزوره في المناسبات وكل شيء تمام الآن والحمد لله، وقد كشفت لي المعاشرة عن مزايا عديدة في زوجتي فهي جميلة كعهدها وهي في صباها وأستاذة في التنظيم وتربية الأبناء وشئون البيت والمطبخ، وجميلة الروح إلى أقصى حد فلا يشعر المرء إزاءها إلَّا بالحب والاحترام.

فقط لا يعكر صفوي أحيانا سوى شيء واحد هو الخوف من الموت وهو إحساس يراودني لأول مرة في حياتي بعد زواجي الثاني، واعترف لك بأنني أخشى أن يفاجئني قبل أن أشبع من السعادة التي انتظرتها طويلًا مع أنني رجل مؤمن بالله وأؤدى فروض ديني كاملة وزوجتي كذلك. لكني كلما ازددت إحساسا بسعادتي تساءلت هل بقيت من العمر بقية لكي أعوِّض فيها ما فاتني من سنوات الوحدة والاكتئاب؟ وهل ترى هذا الاحساس طبيعيًّا أم أنه بوادر مرض لا أعرف كنهه ويحتاج إلى العلاج، إنني لم أصارح أحدًا بهواجسي سواك فماذا ترى؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إنها طبيعتنا القديمة التي تستكثر على النفس دائمًا لحظات السعادة الحقيقية فتتوجس شرا مما قد يعقبها من ألم، وهي طبيعة اكتئابية أكاد أشك في أن المصريين جميعا يشتركون فيها بدرجات متفاوتة، لهذا نستجيب غالبًا للحزن بأسرع مما

نستجيب للفرح، فإن استجبنا للإحساس بالسعادة فقد نفسدها بترقب زوالها بدلا من الاستمتاع باللحظة الراهنة وامتصاص رحيقها.. ولا عجب في ذلك مع شعب للحزن فيه عادات عريقة وتقاليد وليست للسعادة فيه عادات ولا تقاليد بنفس العمق ولا بنفس الاتساع.

ولست ألومك في ذلك وإنما أفسر لك حالك فقط، فأنت الآن شديد الإحساس بسعادتك، لهذا فأنت تخشى أن تفقدها تمامًا كما نخشى على الأشياء الثمينة من الضياع فيساورنا الخوف عليها، ونتفقدها كل حين لنتأكد من أنها لا تزال في موضعها، في حين لا نتفقد الأشياء التافهة لأننا لا نخاف عليها ولن نجزع لفقدها، وأكبر أعداء السعادة هو الفراق، لهذا بدأت أخيرًا فقط وبعد زواجك الثاني تخشى الموت مع أنه كان محلقا فوق رأسك طوال سنوات عمرك، وسوف يظل كذلك لك ولغيرك إلى أن تحين اللحظة المسجلة في اللوح المحفوظ فيهبط الطائر في الموعد المحدد والمكان المعلوم.

وسوف يتكرر ذلك كل يوم، كما تشرق الشمس وتغرب بانتظام؛ فلماذا نفسد أوقاتنا السعيدة بالتوجس مما لن يحول دونه حائل؟ على أنه من المفيد دائما أن يسعى الإنسان لتحصين سعادته ضد غوائل الزمن بالتقرب إلى الله وببذور الخير التي يبذرها حوله فتثمر ثمارها وتحميه من العثرات، فبذلك ومثله تطمئن القلوب، وفي حالتك أنت بالذات بذلك كله وبرعاية هذين اليتيمين ومراقبة الله في تنشئتهما وتعهدهما بالحب والعدل والحنان سوف يطمئن قلبك ويرسخ إيمانك بأحقيتك في السعادة إلى نهاية العمر، لكن دعنا من ذلك كله ولا تفسد علينا استمتاعنا بهذه القصة الفريدة التي جمعت الدنيا فيها بين قلبين ضل كل منهما الطريق إلى الآخر 25 سنة.. يا إلهي، إنه حقًّا حب العمر الذي لا يصبح للحياة معنى إن لم يكتمل

بالوصال، لذلك فقد أحسنت صنعًا حين اعتذرت لأسرة الفتاة عن إتمام الخطبة رغم ما في ذلك من إيلام لها لأنك كنت ستظلمها أكثر، وبكل تأكيد لو كنت قد ارتبطت بها وفتاتك تتراءى أمامك وقلبك يهتف لها صامتا مع الشاعر.

أه ممَّا بي وهَلْ تدرينَ ما بي.

يوم ودَّعتُك ودَّعتُ شبابي

لأنها قصة الصبا والشباب والرجولة بحق، وقد عاد الشباب الآن وآن للغريب أن يهنأ بالعودة إلى عشه القديم الذي لم يفارق خياله.. فاهنأ بحياتك يا صديقي وادع ربك أن يحفظ عليك سعادتك وسلامك، واشرب كؤوس الهناء حتى الثمالة، فالرِّي حق لمن طال عطشه، والسعادة حق أيضًا لمن طال انتظاره لها مثلك والسلام.

الابتسامة الحزينة

أنا يا سيدي شاب في السادسة والثلاثين من عمري، منذ 10 سنوات اقتربت من زميلة لي في العمل وارتبطت بها عاطفيًّا، وكنت شابًا مكافحًا انتهت مسئولية أبي عني بتخرجي في الجامعة، وكانت هي من أسرة طيبة محدودة القدرات كأسرتي فتفاهمنا سريعًا على كل شيء.. وبدأ المشوار من بدايته.. وخلال ٣ سنوات من الخطبة استطعت أن أحصل على شقة في مساكن التعمير الجديدة وقتها، وتم الزفاف وبدأت حياتي الزوجية مدينًا بألف جنيه لزملائي في الشركة، فكان علينا أن نتقشف لنسدد الأقساط وسددناها فعلًا، وتخلصنا من متاعبنا وبدأنا نستمتع بحياتنا معًا، وكانت زوجتي إنسانة رقيقة تبدو دائمًا باسمة ولكن هذا النوع من الابتسام يوحي دائما بحزن غير واضح، وكانت وديعة هادئة لا تعرف الشكوى.. وتتقبل كل شيء بسماحة غريبة فلم نختلف يوما على شيء.. ولم نغضب يومًا من شيء.

حتى عندما اضطهدني رئيسي السابق في العمل لفترة وكان رئيسها أيضا.. لم تتغير معاملتها له ولم تذكره بسوء، حتى خجل من نفسه بعد فترة فاسترضاني وأصبحت صديقًا له ومضت حياتنا هادئة، واشتاقت زوجتي إلى الأمومة

وانتظمنا في التردد على الطبيب. فلاحظ ضعف زوجتي غير العادي.. وعدم استجابتها للمقويات التي وصفها لها، فنصح باستشارة طبيب متخصص في مجال آخر، فذهبنا إليه، ففحصها وطمأننا وطلب إجراء بعض الفحوص الأخرى، ثم وصف لها الدواء وأعادنا إلى طبيبها الأصلي، ومرت شهور الحمل الأولى عادية إلَّا من هذا الضعف الذي يتزايد يومًا بعد يوم، وكلما سألتها عن صحتها ابتسمت نفس الابتسامة التي لا تعرف منها أهي سعيدة أم حزينة، وطالبتني بعدم الانزعاج ثم تحاملت على نفسها لتنهض من السرير وتعد لي الطعام.. والقهوة وكلما طلبت منها أن تذهب لفراشها رفضت وأصرت على أن تحوم حولي وأنا جالس أعمل في البيت لتقدم لي القهوة أو الشاي أو تجلس قريبة مني.

لكنها بعد عدة أسابيع استسلمت للفراش، وزارنا طبيب الشركة التي نعمل بها ليفحصها، ثم انتحى بي جانبا وصارحني بسوء حالتها، وطالبني بعدم الاعتماد على نظام العلاج في الشركة وبإدخالها مستشفى خاصًا كبيرًا.. وأسرعت أنفذ وصيته وأجمع كل ما تصل إليه يداي من نقود لأدفعه للمستشفى والأطباء.. واقترضت من الشركة ما تسمح به لوائحها، ونفد في أسبوعين أو ثلاثة، ثم حولت راتبي إلى أحد البنوك واقترضت منه سلفة أخرى فنفدت في أسبوعين، واقترب موعد الولادة.. وطالبني المستشفى بأجر الجراحة مقدما وكان أربعمائة جنيه لم أكن أملك منها مليمًا واحدًا، ولم يكن لدى زوجتي مصوغات سوى دبلة الزواج فلم أجد ما أبيعه سوى ساعتي التي لم يزد ثمنها على ثلاثين جنيهًا، ثم التلفزيون الأبيض والأسود، ولم يزد ثمنه على أربعين جنيهًا، ولم يكن مع أبي من مصروف البيت سوى ثلاثين جنيها فأعطاها لي بلا تردد.. ففكرت في بيع أثاث الشقة نفسه وليفعل الله بنا ما يشاء بعد ذلك، وذهبت إلى محل الموبيليا الذي اشتريته منه وزعمت

لصاحبه أنه قد جاءني عقد عمل في الخارج.. وأننا سنهاجر خلال أيام وعرضت عليه شراء الأثاث بأي ثمن.. فاشترى مني الصالون بنفس ثمنه تقريبا وتوافر لي المبلغ المطلوب فإذا بهم يطلبون مبلغًا إضافيًّا، فكاد يغمى عليَّ لولا أن وجدت أمامي فجأة رئيسي في العمل واثنين من زملائي جاءوا لزيارة زوجتي، وانتحى بي رئيسي جانبا وقدم لي مظروفا به مائة جنيه قال لي إنها من الزملاء بدلا من الورد والشيكولاتة فقبلتها شاكرا.

وجاء موعد الولادة والجراحة الصعبة، ولم أكن موجودًا ساعتها في المستشفى، فاستدعيت إليه فانخلع قلبي من موضعه، وأسرعت أجري فلم أسمع صرخات مولود ولا كلمات التهاني، وإنما وجدت الجمود فوق الوجوه وسمعت عويل أهلها وأهلي، ولم أشعر بنفسي، ولم أعرف ماذا حدث، وطوال المراسم الحزينة كنت أفكر في مصير المولود الذي جاء إلى الدنيا يوم رحيل الملاك الذي حمله إليها، وفهمت أن شقيقه زوجتي قد احتضنتها في بيتها في هذه الساعات العصيبة.

وظللت أسأل نفسي: متى أستطيع أن ألقي نظرة على وجهها إلى أن انتهى كل شيء؟ وهممت بالذهاب إلى بيت شقيقة زوجتي لأرى طفلتي فإذا بأبي يشدني من ذراعي، ويطلب منِّي تأجيل ذلك للصباح ويصر على أن أمضي الليل معه ولم أكن أريد ذلك لأن بكاءه هدني أكثر من أي شيء آخر وهو يقول لي متألمًا: في هذه السن يا بني تشرب من هذه الكأس.. وبعد صلاة الفجر أردت النزول فطلب مني الانتظار ثم صارحني بما لم يستطع أحد أن يصارحني به.. وهو أنه لا داعي للذهاب إلى بيت شقيقة زوجتي.. لأنه لا مولود هناك.. وأن لي وديعتين في السماء.. وليست واحدة كما كنت أعتقد.. فعرفت في هذه اللحظة فقط أني سرت وراء حبيبتي وابنتي في نفس الوقت وليس وراء حبيبتي وحدها.. كأن ملاكي أراد

ألَّا يحزن على رحيله أحد سواي، فاصطحبتها معها، وعرفت أيضًا ما كان يعنيه بالشرب من الكأس في هذه السن.. فقد كان يقصد كأس الثكل.

ومرت الأيام الحزينة.. ولم أستطع أن أدخل شقتي الخالية فأقمت مع أبي وإخوتي الصغار.. وبعد أسابيع طلبت نقلي إلى الاسكندرية لأكون قريبا من أختي الكبرى التي أجد راحتي معها.. وانتقلت إلى هناك لمدة عام، ثم ترقيت في عملي وطالبوني بالعودة فعدت.. وفتحت شقتي الخالية لأول مرة منذ غادرتها يوم الولادة.. فطفت بحجراتها أتذكر أيامي السعيدة فيها.. وأيام الحيرة والخوف والعذاب وكانت حجرة الصالون خالية كما تركتها فوضعت فيها مكتبا ومقعدين واشتريت جهاز تليفزيون صغيرًا، وعشت حياتي وحيدا.. وبعد عامين بدأ أبي يطالبني بالزواج لأجد من يرعى شئوني.. ولكي يطمئن علي، ورفضت في البداية.. ثم وعدت بالتفكير.. ثم وافقت لكنني كنت عاجزا عن الاقتراب من أية فتاة، فطالبته بأن يبحث لي عن زوجة، فعرض علي إحدى قريباتي من بعيد وهي أخصائية اجتماعية في السادسة والعشرين.. ولم أكن أعرفها ولا التقيت بها من قبل ورأيتها في بيت أبيها، فاسترحت إليها لأول لحظة، هل تعرف لماذا؟ لأني وجدت فيها بعض ملامح شخصية ملاكي الراحل، ليس من حيث الشكل وإنما من حيث الروح والابتسامة الحزينة.. الوداعة.. والهدوء.. وتم الزواج بعد شهور.. وتأكدت فكرتي عنها بعد الزواج وسعدت بعشرتها.. ووجدت فيها العزاء، وعرفت بالمعاشرة أنها تربت يتيمة محرومة منذ الصغر من حنان الأم، ووحيدة بلا أخوة في رعاية أبيها، فتذكرت شطرة من بيت شعر قرأتها في ردك على إحدى الرسائل ووجدتها تصور حالي معها في الشهور الأولى من زواجي، إنها الشطرة التي يقول فيها الشاعر:

وحزينٌ يتأسَّى بحزين

فلقد كنا كذلك.. لكنها كانت نعم العزاء لي.. فقبلت كل شيء.. ابتداء من وجود صورة زوجتي الراحلة في غرفة المعيشة.. إلى شرطي الآخر الذي لم أذكره لك بعد وهو أن نؤجل الإنجاب حتى نتأكد من نسياني كل آثار التجربة المريرة ومن قدرتي على تحمل معاناة تجربة مماثلة.

ومضت حياتنا هادئة.. وكل يوم يمضي ينسج بيننا خيوطا جديدة.. حتى لم أعد أطيق البعد عنها.. ولاتطيق البعد عني.. وكلما رأيتها جالسة أمامي في غرفة المعيشة وأنا جالس أقرأ في أوراق العمل.. أتعجب من حكمة الله ومن فضله.. فكأن ملاكي الحزين جالس أمامي، بنفس الطريقة، ونفس الهدوء ونفس المشية على أطراف أصابعها حتى لا تزعجني.. ونفس فنجان القهوة الذي يوضع أمامي بغير أن أطلبه، ونفس الحومان حولي لترى إذا ما كنت أريد شيئا قبل أن احتاج إليه.

ثم نفس المبادرة لقبول أي شيء كما لو كان مطلبا قديماً لها قبل أن أعرضه، ثم عدم المجادلة في أي شيء.. والقيام الكامل بكل واجبات البيت رغم عملها.. وعدم الشكوى من أي شيء.. يا ربي جلَّت قدرتك.. ومرت السنة الأولى من زواجنا والسنة الثانية ولم يتغير من حالنا شيء.. إلَّا هذا الموضوع القديم الذي ذكرته لك.. وهو تطلعها الصامت إلى الأمومة وإشفاقها من أن تفاتحني فيه ففاتحتها أنا بعد أن لاحظت كثرة شرودها.. فقالت لي بعد تردد إنها تربت وحيدة وأن أباها لم يكن يسمح لها باللعب مع أحد فلم تعرف الطفولة بمعناها الصحيح.. وإنها فعلا تتطلع إلى طفل تفرغ فيه كل حنانها وتوفر له كل ما حرمت منه هي في طفولتها، لكنها لن تطالبني بها لا أريده لأنها تقدر ظروفي. ثم غيرت موضوع الحديث وعادت حياتنا إلى مجراها، وبعد شهور أخرى لاحظت شرودها.. ففكرت جديًّا في أن استجيب لرغبتها الصامتة، لكني فزعت فزعا شديدا لمجرد

أني استسلمت للفكرة.. تسلطت علي وساوس شديدة، لم أصارحها بها لكني سأقولها لك وأطلب منك رأيك فيها.. إن زوجتي الثانية.. هي صورة طبق الأصل في روحها وتصرفاتها ووداعتها ونظرتها الاستسلامية للدنيا من زوجتي الراحلة.. بل ويا ربي أيضًا في كلامها عن الأطفال حين تكلمنا عنهم.. أليس ذلك مؤشرا باحتمال أن يكون التشابه في المصير أيضا؟

إنني أرجوك ألَّا تشك في إيماني فأنا مؤمن بالله ومحافظ على فروض ديني، وأعرف أنها وساوس من عمل الشيطان.. لكن هذه الوساوس التي هي من عمل الشيطان تتسلط علي، وتدفعني للإحجام كلما وعدت زوجتي بالاستجابة لندائها الصامت للأمومة.. لقد استشرتُ رئيسي السابق في العمل الذي أصبح مديرًا الآن فنصحني بالذهاب إلى طبيب نفسي لأني قد أحجمت عدة مرات عن اتخاذ قرار الإنجاب.. بعد مناقشات طويلة معه وعدته في كل مرة منها بالاقتناع ثم تتسلط علي الوساوس، فانزعج وارتجف ويتصبب العرق من جسمي حين أتصور أني بذلك قد أحكم على زوجتي بنفس المصير حتى تشفق علي هي وتطالبني بنسيان الموضوع حتى لا أتعذّب.. لكني لا أريحها ولا أستريح.. فماذا ترى؟؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أرى يا صديقي أن القرار ليس في يدك كما تتصور لكي يكون من حقك أن تتردد وتفزع وترتجف حين تفكر في عواقبه.. وإنما القرار في يده وحده علام الغيوب ومن يعلم السر وأخفى.. فإذا كان القرار قراره فالمعاناة لماذا وأنت لو اتخذت ألف قرار بالإنجاب فلن تغير من الأمر شيئا إلَّا أن يشاء الله.

وإذا كان كل شيء بقضائه وقدره.. والتسليم بالقضاء والقدر من أركان الإيمان.. فالخوف لماذا؟؟

وهل يحمي الحذر من قدر يا صديقي؟ وهل معنى وقوع حادث أليم في الشارع أن يلزم البشر بيوتهم خوفا من أخطار الطريق؟

ثم لماذا تتصور أن التشابه في الروح والخصال الجميلة وحسن المعاشرة هو إشارة إلى تشابه المصير.. وهو وحده سبحانه من يقرر المصائر ويحدد الآجال.. ولماذا لا تتصور أن هذا التشابه نفسه هو هديته لك تعويضا لك عن آلامك ورفقا بك بعد تجربتك الحزينة.. وإيذانا لك بأن تحصل على نصيبك العادل من السعادة.

يا صديقي لا تبدد سعادتك في الوساوس.. فلقد أديت ضريبة الألم كاملة ويكفيك ما عانيت، واستبشر بالحياة، فالرسول الكريم يقول: «لا طيرة.. وخيرها الفأل»، أي وخير منها التفاؤل، ولا معنى للخوف من المجهول.. فلو استسلم كل إنسان لمخاوفه لما تحرك من مكانه.. ولما شرب وما طعم، والنساء يلدن منذ عهد آدم وحواء وسوف يلدن إلى يوم الدين، ولن تتوقف الحياة حتى ينزل عليها الستار الأخير، فكن عادلًا مع شريكتك المضحية الرقيقة التي تقبل منك أي شيء.. وتحبك وتحوم حولك كما يحوم الطيّر حول أفراخه حرصا عليها ورعاية لها، وامنحها حقها العادل في الأمومة الذي تضحي به من أجلك وتقديرا لظروفك أفلا تستحق منك أن تضحي أنت أيضًا من أجلها بهذه المخاوف التي تفسد عليك حياتك؟!!

إنك لست في حاجة إلى استشارة الطبيب النفسي لأنك تعرف أسباب هذه الوساوس وتفهمها.. ومن عرف الداء فقد عرف الدواء، ودواؤك هو المزيد من الاطمئنان إلى عدالة السماء والمزيد من التسليم لإرادة الخالق فتهجع المخاوف وتسكن الروح ويطمئن القلب.

وسوف تبدي لك الأيام بإذن الله أن هذه الوساوس لم تكن تستحق كل هذه المعاناة.. وسوف يتم الله نعمته عليك وتسعد بمولود جميل يضيء حياتك ويمحو إلى الأبد أثار الذكريات الحزينة.. فلا تنس عندها أن تهدي إلي شمعة من شموع وليد السعادة والحب المتبادل بينكما دائمًا بإذن الله.

السنة اللَّهب

سيدي أكتب إليك بعد أن انتهيت من قراءة رسالة «القلب المحفور»، التي يروي فيها كاتبها قصة حبه الرائعة مع زوجته وكفاحهما معًا لبناء عشهما من شقة ليس فيها سوى 3 أكلمة وبطانية ووسادة، إلى أن أثمر كفاحهما وأنعمت الدنيا عليهما بالنجاح والوفاق وإن كانت قد حرمتهما من الإنجاب.

وصدقني يا سيدي أنني بكيت وأنا أقرأ عن هذا الحب الكبير، الذي يجمع بين قلبيهما وعن هذا الإيثار، الذي يتبادلانه إلى حد أن تقترح عليه زوجته أن يتزوج عليها أخرى لكيلا تحرمه من الأطفال مع بقائها على حبها وإخلاصها له.. وبكيت وهو يشرح لك كيف رفض وأصرَّ على الرفض متمسكًا بها إلى النهاية. لأن هذه القصة جددت أحزاني وأشعرتني بعمق المأساة التي أعيشها.. فلقد كانت لي قصة حب وزواج مماثلة بدأت بعد أن تخرجت في الكلية منذ عشرين سنة وعملت في وظيفة مرموقة لها بريق يخدع الأبصار عن حقيقة وضعها المادي، وبهذا البريق وحده تحدد مصيري إذ تعرفت بفتاة جميلة أحببتها بكل شبابي وحرماني وأحبتني باندفاع، وحين أردنا الارتباط واجهتنا المشاكل، فاصطدمت أولًا بموقف أسرتها التي لم تتحمس للزواج لكنها لم ترفض صراحة، خوفا من ابنتهم العنيدة القوية

وهي أسرة من عالم غير عالمي تعتز بعضويتها القديمة جدًّا في نادي الجزيرة وسكانها منذ الأربعينيات في حي الزمالك وبعلاقاتها الاجتماعية العريضة مع من يسمون بالطبقة الراقية، مع أنها أسرة ليست ثرية في النهاية.

أما أنا فقد كنت أحد أبناء موظف صغير جدًّا في قرية كافح كفاح الأبطال لتعليم أبنائه وأرسلني إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة، معتبرا أنه قد أدى رسالته بذلك، وكان يرسل لي حوالة بمبلغ خمسة جنيهات لأعيش بها طوال الشهر في المدينة الجامعية، معتمدًا على وجبات الطعام فيها التي لا يزيد ثمن الواحدة منها - أيامها - على 3قروش.

وعندما تخرجت وجدت بسهولة سكنا مشتركا في شقة من 3 حجرات مع زميل لي نتقاسم إيجاره ونفقاته.. إلى أن عرفتها بالمصادفة في بوفيه كلية الآداب القديم، وكانت تزور إحدى صديقاتها، لأن فتاتي لم تحصل سوى على الثانوية العامة، فبدأت العلاقة وأحببتها حبًّا ملك عليَّ نفسي.. وأحبتني حبًّا جنونيًّا وحين أردنا الزواج قررت أن تعرضني على أسرتها، ويوم قدمتني إليها غسلت بدلتي الوحيدة وكويتها وارتديت أحسن قمصاني وذهبت إلى بيت أسرتها في الموعد المحدد. وإستقبلتني الأسرة في الصالون المزين بصور زفاف الأقارب العديدين.. وجاءني الأب في روب دي شامبر مترفعا متحفظا.. وكذلك الأم والشقيقات وأحسست من اللحظة الأولى أني غير مرغوب فيَّ.. وأن الأسرة لا تراني من مستواها.. لكن فتاتي جلست في الصالون متنمرة لأي حركة من أسرتها ضدي.. ولاحظت ذلك وانتهى الموقف بتسليمهم برغبة ابنتهم.. كأنهم قد يئسوا منها فتركوها تفعل ما تريد.. وأقنعت زميلي في الشقة بأن يبحث لنفسه عن مسكن آخر لأتزوج فيها.. وكان شهمًا فقبل خصوصًا أنه كان من السهل أيامها العثور على سكن آخر..

ورتبت فتاتي كل شيء لنتزوج.. واعتصرت أنا أبي وإخوتي ليعطوني كل ما معهم لأقدم به شبكة مناسبة لها، واقترضت من كل أصدقائي وأعطيتها كل ما معي، واشترت الشبكة التي تراها لائقة أمام الأهل، وأنفقت أنا كل ما معي لأحافظ على المظهر المطلوب وكانت خطتها أن نتزوج ثم نسدد ديوني ونستكمل مطالب بيتنا من حصيلة «الصباحية» التي سوف يقدمها لنا أقاربها العظام.

وبدأنا حياتنا الزوجية وليس في جيبي سوى ثلاثة جنيهات، وبدأ الأهل يتوافدون علينا لتقديم هدايا الزواج المالية، ولاحظت بدهشة أن هدايا عائلتها كانت خمسين جنيها من كل أسرة.. وكانت مبلغا كبيرا في الستينات، ولم يفتني أن ألحظ الفارق المؤلم بين هدايا أسرتها وهدايا أسرتي التي لم تزد الواحدة منها على خمسة جنيهات، كما لم يفتني أيضا أن ألحظ أن إخوتي وأقاربي كانوا يبدون كالغرباء وسط أسرتها وأقاربها، الذين لم يبدوا أية رغبة في الاقتراب منهم، وتألمت لكني كتمت ألمي وانتهى «المولد» بعد أيام، وأسفر عن حوالي 600 جنيه أكثر من 500 منها جاءت من أسرتها.

وبدأت زوجتي تستكمل شراء الأشياء الناقصة وأعطتني خمسين جنيها لتسديد ديوني، وغرقنا في بحر السعادة بلا حدود، ولاحظت من الأيام الأولى أن زوجتي لا تكاد تعرف شيئا عن أعمال البيت كما أنها لا تدخل المطبخ إلّا نادرا ولصنع فنجان من «النسكافيه» أو الشاي.. أما الطعام فمن السوق يوما بيوم، ولم ألتفت لذلك طويلًا لأني كنت غارقا في حبي لها وسعادتي بها، وحملت زوجتي واقترب موعد الولادة فطلبت مني زوجتي أن أحجز لها في المستشفى الذي تلد فيها فتيات الأسرة، وهو مستشفى غال.. فسافرت إلى بلدتي وقابلت أبي وشرحت له الموقف وطلبت مساعدته فأشفق عليَّ، واقترض من رئيسه مبلغا وأعطاه لي، مع ما تبقى

من راتبه وعدت للقاهرة فبعت ساعتي وحجزت لزوجتي في المستشفى الفاخر، ووضعت زوجتي طفلة وخرجت من المستشفى إلى بيت أبيها لكي تتولى أمها إرشادها لرعاية الطفلة، وعشت وحيدًا لمدة شهرين أتردد عليها كل يوم.. وكلما سألتها عن موعد العودة تقول لي عندما أسترد صحتي، واطمئن إلى أن الطفلة بخير. ثم أخيرًا عادت تاركة الطفلة في رعاية أمها لكي تعود إليها كل يومين فتمضي بجوارها ثلاثة أيام، وهكذا وكلما طالبتها بإحضار الطفلة لبيتنا والاستقرار معي فيه، رفضت في البداية بهدوء ثم بشدة، ثم بعنف، ثم صرخت في: «تيجي تعيش فين، في شقة ما بتدخلهاش الشمس بالخمسة وعشرين جنيه بتوعك»!

واتضحت الحقيقة المؤلمة أمامي لأول مرة، لقد هدأت نار الحب التي جمعتها بي.. وبدأت حبيبتي تضيق بمتاعب الحياة معي وبضآلة راتبي، وصدقني يا سيدي أن قصة سعادتي معها قد انتهت بالفعل بعد زواجي منها بسنة وثلاثة شهور، فمنذ ذلك الحين لم تستقر الحياة بنا أبدا.. وخلال السنوات الثلاث التالية كانت تصفو لي أحيانا ويتجدد الحب في قلبها فتعود لتقيم معي شهورًا.. ثم تضيق بمتاعب الحياة فجأة فتعود إلى بيت أسرتها وأعيش وحيدًا مشردًا وهكذا، والعجيب أنها حين تصفو تصبح كالنسمة الرقيقة تفيض حبًّا وحنانًا.. وحين تنقلب تصبح كالقطة المتوحشة التي تخمش من يقترب منها، ولا تخفي رأيها في أنها أخطأت بالزواج منيِّ لأني لم أكن لها، وأن شقيقاتها ينعمن بأزواج أثرياء ويتقلبن في النعيم وهي تعاني شظف العيش معي، وليس غريبًا طبعا أنها قاطعت أهلي بعد الزواج بقليل ونفَّرتهم من زيارتي.

وهكذا مضت بي الحياة معها.. حتى جاءتني الفرصة للعمل في الخارج فذهبت إليها وأبلغتها بأن مشاكلنا سوف تحل، وأنني سأحقق لها كل مطالبها.. فشجعتني

على السفر وسافرت فعلًا، واستدعيتها بعد 3 شهور فجاءت فرحة مقبلة على الحياة وعلى التجربة، ووجدتني قد استأجرت شقة من 3 غرف وأثثتها بالأثاث المناسب لغريب سيعمل عدة سنوات ثم يبيع كل شيء ويعود لبلاده، فرفضت هذا ثم نزلت إلى الأسواق لتشتري أثاثًا فاخرًا يليق بها.. ولم تكتف نقودي فطالبتني بالاقتراض من البنك بضمان راتبي لاستكمال الأثاث.. وفعلت راغمًا، وهكذا عدت مدينا في غربتي رغم ضخامة راتبي.. ونفذت ما أرادت وأصبحت لنا شقة كشقة أسرتها في مصر.

وهدأت الأحوال بيننا لمدة 4 سنوات عشتها في هذا البلد.. لم تكف خلالها عن الشراء وإقامة الولائم، ودعوة الأصدقاء والمعارف. ولولا أني أخفيت عنها موردا من مواردي هناك لما استطعت أن أدخر مليمًا، ولما استطعت أن أعود في إحدى الأجازات وحيدا لاستأجر شقة من 4 غرف في حي راق قريب من حي الأسرة العتيد، لأنها متلافة بشكل عجيب.. وكالبحر الهائج دائما.. في السلم والحرب معا أي في السعادة.. وفي الشجار.. لا وسط عندها أبدا، لها أصدقاء وأعداء باستمرار، مع الأصدقاء تذوب رقة.. ومع الأعداء كالنار الموقدة، ورغم أني لم أدخر عشر ما كان ينبغي أن أدخره خلال هذه السنوات الأربع، فلقد كانت أجمل سنوات حياتنا وأكثرها استمرارية.. إذ عدنا بعد ذلك إلى مصر وتكبدت نفقات هائلة لشحن الأثاث الملوكي الذي اشترته هناك وحققت لها جميع رغباتها، وعدت إلى عملي الذي حققت فيه بعض التقدم، وأصبح لي منه دخل معقول، لكنه كان لا يفي بمطالب حياتها الباهظة، وطبعًا عادت المتاعب بعد فترة وتفاقمت حين أهانتني ذات مرة إهانة جارحة أمام أسرتها وهي تتحداني إن كنت رجلًا أن أطلقها، ولم تكن المرة الأولى ولا العاشرة التي طالبتني فيها بالطلاق.. فطلقتها لكي تعود إلى

رشدها.. وانتظرت 6 شهور كنت خلالها أرى ابنتي عن طريق أختها.. ثم بدأت أتوقع أن تفتح أختها باب الحديث عن الصلح. بلا فائدة، فبدأت أنا أقترب منه فإذا بأختها تلقي علي قنبلة لم أتوقعها عندما قالت لي إن مطلقتي وأم طفلتي التي لا يزيد عمرها على 8 سنوات قد تزوجت بالفعل منذ أيام من أحد أقاربهم أي من مستواها، وأنها تقضي شهر العسل في أوروبا، وأحسست بالدنيا تميد بي. أهكذا سريعا لم تفكر في ابنتها وفيَّ.. وفي الأيام التي عشناها معا، لقد تركت ابنتها مع جدتها وانطلقت تتمتع بالحياة بلا أي إحساس بالمسئولية، وبغير أن تعطي نفسها فرصة للتفكير، وأسودت الدنيا في وجهي وعشت شهورًا كالدائخ لا أعرف رأسي من قدمي، وسعيت للانتداب في مدينة بعيدة عن القاهرة في أقصى الجنوب عشت فيها عاما طويلا وكئيبا.. حتى بدأت أتمالك نفسي وأفكر في العودة للقاهرة والذهاب إلى بلدتي لخطبة أية فتاة ترضى بي، وعدت واتصلت بشقيقتها لأطلب رؤية ابنتي، وذهبت إليها فقالت لي ألا تحب أن ترى فلانة؟ فقلت ولماذا أرى زوجة رجل آخر؟ فقالت لي إنها لم تعد زوجة رجل آخر لأنها طلقت منه وعادت لمصر ولبيتها.. وإنها تحس بأنها أخطأت في حقي فقلت لها سأفكر في الأمر.

وبعد أيام كنت في عملي حين سمعت صوتها في التليفون تخاطبني.. واعترف لك بأني نسيت كل عذابي خلال السنة ونصف السنة الماضية حين سمعتها تناديني باسمي ووجدتني أقابلها.. ووجدتني اصطحبها إلى المأذون لأعيدها إلى عصمتي وإلى الشقة الخالية لننفض عنها ترابها ونستعيد ذكرياتنا، وكانت سعيدة لا تكف عن التأكيد بأنها اكتشفت أنه لا أحد في العالم يحبها مثلي، وبعد الأيام السعيدة التي أمضيناها وحدنا بعد العودة، قررنا أن نذهب إلى شقة أسرتها لتصطحب ابنتها لتعيش بيننا بصفة دائمة، وذهبنا معا وجمعت زوجتي أشياء الطفلة واستعددت

للخروج مع ابنتي فرأيت زوجتي تحمل على يديها طفلا رضيعًا وتقبله باسمة.. ثم تركب معي السيارة وتتحدث وتضحك وتعلق بمرح على كل شيء.. كأن شيئا لم يكن.. وأنا ساهم حائر أكذب عيني.. ثم سألتها عنه فقالت ببساطة إنه فلان أخو فلانة أي ابنتي! ثم انتقلت للحديث عن شيء آخر، كأن الأمر لا يستحق التوقف عنده! وذهلت للمفاجأة الأليمة وفي البيت سألتها لماذا لم تخبريني بالأمر من قبل؟ فقالت مندهشة إنها ظنت أن أختها قد أبلغتني بالأمر، وأني تجنبت الحديث معها عنه مراعاة لمشاعرها وسكت.. وتساميت فوق جراحي.. وقلت لنفسي إن كثيرين يتزوجون مطلقات ولهن أولاد ويربونهم.. فلماذا لا أعتبر الأمر كذلك! لكني أعود فأجد نفسي تنفر من هذا المولود وأقول لنفسي إنه ليس ابن أية مطلقة.. إنه رمز لخيانتها لحبي.. وجريها وراء زوج ثري يحقق لها ما لا تجده معي، إنه ثمرة حمقها واندفاعها الذي قادها لتدمير بيتنا.. ثم الزواج من رجل ثري قضى وطره منها وزهدها سريعًا فطلقها وعاد لحياته الأولى.

لا تقل لي كن إنسانا، وانس هذا الأمر، فإنني إذا نسيته، فإنها لا تنساه.. فلقد عادت بعد فترة قصيرة من الضعف إلى قوتها وجبروتها، وأصبحت لا تخفي إعزازها الخاص لهذا الطفل لأنه ابن ذوات ودمه أزرق مثلها! بل وأصبحت لا تخجل من أن تتحدث أمامي عن أبيه وللعجب بلا أي مرارة ضده، رغم أنه رماها، بعد عشرة شهور بل تتحدث عنه أحيانا بحنين، وكأني لست موجودا أمامها.. وأكثر من ذلك تتصل بأهله أمامي بحجة أنهم أهلها وأنها واجبات اجتماعية، فإذا ثرت وغضبت قالت لي هل تحس بالغيرة من خيال غير موجود، إنه لا يعيش في مصر وهو أبو طفلي ولا فائدة من مقاطعة أهلي وأهله بسبب ذلك، فإذا تماديت في ثورتي انطلقت براكين غضبها وهددت بتحطيم كل شيء، ثم تطور الأمر بعد ذلك

تطورًا خطيرًا.. حين لاحظت كثرة أحاديثها مع أقاربه.. حتى بدأت أشك في أنها ترتب أمرًا ما معهم.. فصارحتها بشكوكي فقالت لي أنها ضاقت بكل شيء وطلبت مني الطلاق وأصرت عليه، واجتنبتني وإن كانت لم تغادر الشقة لكيلا أتصور أنها تفعل شيئا خطأ.. ومضى على انفصالنا الواقعي 3 شهور وهي مستمرة في الحديث تليفونيًّا كل يوم مع شقيقات مطلقتها، وتخفض صوتها إذا اقتربت منها، تستقبلهن على انفراد في الصالون وتمضي معهن الساعات الطويلة وإذا ناقشتها قالت لي كلمة واحدة: طلقني.. وبتصميم شديد أعرفه فيها حين تنوي شرًّا.. لكني لا أريد أن أجاريها في اندفاعها هذه المرة.. فما رأيك؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

رأيي في أي شيء يا سيدي، إنها ترتب مع شقيقات مطلقها أمر عودتها إليه تحت سمعك وأمام بصرك.. وترفض مغادرة الشقة هذه المرة إلى بيت أهلها لكي تطمئنك إلى أنها لن تلتقي به إلَّا بعد أن تطلقها، وهي امرأة مغرورة جبارة مدللة لا تعرف إلَّا الخضوع لرغباتها، وسوف تحصل على الطلاق الآن أو غدًا، ولا تخفي ضيقها بك وندمها على الارتباط بك، بل ولا تلهفها الآثم وهي معك على مطلقها الغائب الذي عرف كيف يروض روحها الجامحة، وألقى بها في الطريق مع وليدها عند أول خلاف، ومع ذلك فهي لا تحمل مرارة تجاهه وتهفو روحها إليه وهي معك.. أهناك جحيم أكثر من هذا؟

إن المرأة لا تحترم الرجل الضعيف المسلوب الإرادة الذي يقبل الهوان ولو منها، وزوجتك من هذا النوع القوي من النساء الذي لا يخضع إلَّا للأقوى منه، ولا يحترم سواه، وأنت يا سيدي مسلوب الإرادة معها.. وقبلت منها ما لا يقبله الحر على مدى سنوات طويلة.. وقد أخطأت من البداية بزواجك منها لأنك لست من عالمها ولا هي من عالمك، ولأن التكافؤ الاجتماعي شرط أساسي من شروط الزواج الناجح. وأخطأت أكثر بتسرعك في العودة إليها حتى قبل أن تتبين إذا ما كانت قد أنجبت من غيرك أم لا، وقد عدت إليها كما تقول لا بعد أن اكتشفت أنها تحبك وإنما لأنها اكتشفت هي أنك أكثر إنسان يحبها في الوجود، وهذه الشهادة في حد ذاتها جريمة في حقك.. ودليل على نوع العلاقة العاطفية التي تربطك بها.. وهي علاقة الحب من طرف واحد يتعذب ويعطي ولا ينال شيئًا، واعذرني إذا قلت لك إنني لا أحترم هذا النوع من الحب، إذ كيف يحب الإنسان السوي من يجرح كرامته ومشاعره ويلفظه كلما وجد الفرصة؟

يا سيدي إنه ليس عارًا أن نتجرع الفشل في الحب لأسباب خارجة عن إرادتنا، لكن العار كل العار أن نستمرئ الهوان.. ولا نفرط فيه كأننا نؤكد بذلك قول الشاعر: «من يهن يسهل الهوان عليه»، ولا أريد أن أكمل باقي البيت لأني أربأ بك أن تكون كذلك.. إن الإنسان لا يستطيع أن يشتري حب أحد لأنه كما تعرف لا يباع ولا يشتري، ولا يستطيع أن يفرضه على أحد، لكنه يستطيع على الأقل أن يفرض احترامه على الآخرين باحترامه لنفسه وبمفارقته يمكن أن يكتوي بألسنة اللهب. واستمرار زواجك بهذه السيدة جحيم يتوارى إلى جواره جحيم «دانتي»، لأنه زواج محكوم عليه بالفشل ولا راد لقضائه في ذلك، فهذه السيدة ليست لك ولن تكون لك. وابنتك لا دخل لها في حسابات زوجتك بالنسبة لك فمصيرها

الطبيعي هو رعاية جدتها التي ربتها منذ البداية، وقد تعقد الأمر بوجود هذا الطفل الذي أضاف للمشكلة أبعادًا جديدة تربطها بمطلقها بأكثر مما تربطها بك، والأمر كله معقد كأنه تراجيديا إغريقية، أنت ضحيتها الأولى، لأنك بكل أسف الطرف المغلوب على أمره فيها، الذي يتكالب عليه أعداؤه من الداخل والخارج.. فمن الداخل عدوك هو قلبك الجريح الذي لم يتخلص بعد من حب هذه السيدة الجاحدة؛ التي لا تستحقك. ومن الخارج هؤلاء الوحوش الذين يرتبون الأمر لعودتها لمطلقها، وكأنك لست طرفا في المأساة كلها، أو كأن انفصالها عنك أمر محتوم ومسألة إجراءات ليس إلَّا، ثم تقول لي بعد كل ذلك إنك لا تريد أن تجاريها في اندفاعها هذه المرة وتطلقها!

يا سيدي جارها في اندفاعها هذه المرة بالذات من أجل خاطري ومن أجل خاطر كرامتك، قبل أن تفاجأ بما يطعنك في رجولتك أكثر من هذا، ولن تفقد شيئًا ثمينا بفقدها، فماذا يساوي عندنا من لا يريدنا ولا يرغب فينا؟ ثم إنها ليست نهاية الحياة يا صديقي فكم من تجارب أليمة يبدأ الإنسان بعدها حياته من جديد، وكم من محن شخصية يمر بها ثم تعطيه الحياة بعدها حقه العادل من السعادة الذي غاب عنه سريعًا، بل لعل هذا نفسه يرشح الإنسان للحصول على حقه من السعادة بعد أن أدى ضريبة الألم غالية من زهرة عمره وشبابه.. ففارقها يا سيدي وتألم حتى تشفى منها ومن هذه المحنة.

فلربما صحت الأجسام بالعلل.. كما يقولون. ولربما كانت هذه البداية الصحيحة في حياتك فتعود إلى أهلك ومجتمعك وأقاربك.. وترتبط بإنسانة أخرى تدخرها لك الحياة وترى فيك أملها وفخرها ومستقبلها.. لا طيشها.. وخطأها.. وعاقبة رفضها لنصائح الأهل.. كما تفعل هذه السيدة المتوحشة.

رنين الذكريات

سيدي لا أكتب إليك لأروي لك قصة حبي وزواجي من شريكة حياتي.. ولا أحكي لك كما يفعل بعض قرائك كيف تعرفنا ووجد كل منا في الآخر نصفه الغائب، ولا كيف كافحنا لنبني عشنا وذكرياتنا السعيدة ونحن نبنيه طوبة طوبة.. ولا كيف اكتملت سعادتنا حين وجدنا نفسينا أخيرًا في عش صغير تظلله بسمة زوجتي وإقبالها على الحياة وحبها للناس جميعا.

ولا أكتب إليك كذلك لأروي لك ذكريات سعادتنا الصغيرة. ورحلاتنا إلى القناطر الخيرية، والأهرام.. إلخ.. ولا كيف استقبلنا مولودتنا الوحيدة واختارت لها شريكة حياتي اسم «هدير» ليكون متوافقا مع اسمي ومثيرا للبسمة عند من يسمعه مقترنا باسمي، ولا كيف وثَّقت هذه الطفلة الجميلة من روابطنا فأصبحت محور حياتنا، وأصبحت كلماتها طرائف نضحك عليها ونسعد بها.. خصوصا زوجتي التي فطرها الله بفطرة غريبة هي أنها تحاول إسعاد غيرها بكل الطرق ولو على حساب نفسها.

ولا أكتب إليك أيضا يا سيدي لأحكي لك الفصل الحزين من قصتنا.. وكيف تسلل المرض إلى زوجتي الملائكية بغير أن ندري، ثم نما واستفحل بغير أن نستطيع

السيطرة عليه حتى وصلت القصة إلى نهايتها الحزينة منذ عامين، ووجدت نفسي وحيدا مع طفلتي التي لم تكن قد أكملت سبع سنوات من عمرها في ذلك الوقت، واضطررت آسفا إلى تركها في رعاية أسرة زوجتي، وعدت أنا للإقامة مع أهلي وأصبحت سعادتنا ذكريات تطاردني في نومي.. وفي صحوي.. أغمض عيني فأرى وجه زوجتي الراحلة الملائكي يبتسم في عتاب.. كأنها تلومني على أفراطي في الحزن عليها.. وهي من كانت لا تحب الأحزان حتى في أشد لحظات الألم.. ومن كانت تدفئ حياتنا وهي ترتجف من وطاة المرض.. وتضحكنا وهي تتلوى من الألم، وترسم البسمة على وجهينا وهي تنزف دمًا، وتنير بصيرتنا وهي تفقد بصرها يوما بعد يوم، وأسمع أحيانا صدى صوتها يرن في أذني فيغمر نفسي بالحنين إلى رنين ذكريات الماضي الجميل.

ومع كل ذلك فإني لا أكتب إليك يا سيدي لأشكو من ذلك - لأني رجل مؤمن بقضاء الله وقدره - وقد رضيت بنصيبي من الدنيا وتقبلته كما رضيت من قبل عن سعادتي ونعمت بها.. واعتبرت ما حدث هو حزني الخاص الذي لا أحب أن أطلع أحدًا عليه.

لكني أكتب لأشكو لك من شيء آخر.. هو أنه بالرغم من مرور عامين على رحيل شريكتي فإن طفلتي التي تقترب الآن من التاسعة مازالت تعايش وجود أمها الراحلة كحقيقة تخصها وحدها، وترفض الاعتراف بالواقع المر الذي تعرفه جيِّدًا، فهي تتكلم عن أمها دائما بصيغة المضارع.. فتقول ماما تفعل كذا أو تقول كذا ولا تحب كذا، وترفض دائما أن تقول كانت تقول كذا ولا تحب كذا، وقد حاولت مرارا أن أجعلها تتعود أن تلحق اسم أمها بعبارة الله يرحمها ففشلت في ذلك فشلًا ذريعًا.

واستخدمت قراءاتي في الدين والفقه والعلوم الإنسانية لإقناعها بقبول فكرة الرحيل النهائي، بما يتماشى مع عمرها وتكوينها النفسي والعقلي ففشلت أيضًا، ويزيد من متاعبنا أن بعض زميلاتها في المدرسة يتمسكن بتعريفها بأمهاتهن فتتصرف بطبيعية وتضاحك زميلاتها وأمهاتهن لكنها حين تعود إلى البيت لابد أن تجد سببا ظاهريًّا للبكاء ثم تنساب دموعها بما لا يتناسب أبدًا مع السبب، ولو فعلنا المستحيل لتجنب إغضابها فإنها تندفع في البكاء بلا سبب، واليوم الحزين حقا هو اليوم الذي تطلب فيه بإصرار لا تنجح معه أي محاولات أن تتصفح ألبوم صورنا العائلية، فتشاهد الصور التي تضمنا مع أمها متهللة سعيدة وتحكي عن كل صورة ذكريات مناسبتها.. ثم تشكرني وتقبلني لأني سمحت لها بمشاهدة الصور، ونحاول جميعًا بعد ذلك شغلها وإلهاءها بأي شيء لكي لا تنفرد بنفسها لكنها لابد أن تجد فرصة لكي تنساب دموعها فتنساب معها دموعي ودموع من معي ويكون يومًا حزينا آخر!!

لقد أصبحت أفضل عدم تقديمها لمن لا يعرفها لأني ما إن أذكر اسمها لمن أقدمها له، حتى تنطلق تحكي له عن سر اختيار ماما لهذا الاسم وتلفت نظره للتوافق بين اسمها واسم أسرتي.

ومما يعقد المشكلة بعدي عنها حيث تقيم مع أسرة زوجتي، لكنني أراها كثيرا وأحاول دائما شغلها بأمور كثيرة نافعة، وأصحبها أحيانا إلى مسارح الدولة حين تعرض عملا يستحق المشاهدة.. وأصحبها لسماع الموسيقى الراقية لترقية ذوقها.. وأشجعها على ممارسة الرسم الذي تهواه وتمارسه، وأجور على الوقت الذي أخصصه لقراءاتي لكي أشغل دنياها الصغيرة بما يسعدها.. وأتفرغ لها تماما يوم الجمعة لأن عملي كفني كهرباء بإحدى شركات القطاع العام وبعد سكني

عن مقر إقامتها لا يتيحان لي التفرغ لها سوى في هذا اليوم، وألبي كل مطالبها بما لا يفسدها، لكني رغم كل ذلك أحس بالفشل معها وأحار في فهمها ويزلزلني الخوف عليها، بل والخوف من أن أفقد عقلي وصبري وإيماني وأسألك ماذا أفعل معها وإلى أين وكيف السبيل وهل أنا مريض نفسيًّا؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدي لست كما تظن ولن تكون إن شاء الله، بل أنت إنسان ناضج مثقف تعرف الكثير عن حقائق الحياة، لذلك فقد رضيت بما اختارته لك الأقدار وسلمت به واعتبرته حزنك الخاص الذي لا تحب أن تطلع أحدًا عليه، ومن منا من ليست له أحزانه الخاصة التي لا يحب أن يطلع عليها غيره. ومن منا من ليس بواحد من جَرْحَى الحياة بشكل أو بآخر، وما أكثرهم وما أحفل الحياة بهم. لذلك فإني اعتبر أنه ليست هناك مشكلة فيما يتعلق بك، لكن المشكلة الحقيقية هي مشكلة ابنتك الصغيرة، فلأنها ليست مثلك ناضجة ومثقفة وتعرف الكثير عن حقائق الحياة، فلقد تمسكت في خيالها بالماضي الجميل ورغبت في أن تعايشه كرد فعل هروبي تلقائي للحاضر المؤلم الذي تعيشه، وهي ليست فريدة في ذلك، فنحن أيضا نمارس هذا الهروب بشكل مختلف مما يؤلمنا في حاضرنا إلى ما سبق أن أسعدنا في ماضينا.. لكننا نمارسه بشكل أخف وخلال ومضات سريعة تخطف في داخلنا ونسترجع خلالها ذكرياتنا السعيدة وأيامنا الخالية ثم نعود سريعًا إلى واقعنا ونواصل حياتنا.

ومع ذلك فنحن لا نواجه مشكلة نفسية في ذلك، لأننا نسترجع ذكرياتنا السعيدة ونحن نعي أنها ذكريات، ونستروح الماضي الجميل ونحن نعرف تماما أن

الماضي لن يعود، أما هي فإن براءتها لا تسمح لها بأن تعي كل ذلك، وإنما ستعيه تدريجيًّا.. وستقل لحظات هروبها إلى الماضي مع تقبلها التدريجي للواقع الذي ترفضه الآن، والزمن كفيل بمداواة الجراح يا صديقي.. فلا تقلق عليها ولا تخف فمن نعم الله أنه أنعم علينا بالنسيان، نداوي به جراحنا.. ونستعين به على شدائدنا ولولاه لتوقفت الحياة وتسمر كل إنسان عند أحزانه وألامه ومشاكله وخلافاته وصراعاته والسهام التي أصابته من الآخرين، وللأطفال أيضًا حكمتهم الفطرية التي تسهل عليهم تقبل هذه الحقائق الأليمة.. ولهم أيضا واقعيتهم الخاصة التي نعجز أحيانا عن فهمها، ولعل هذا ما يفسر هذا السلوك الذي يبدو لنا صادما لمشاعرنا عند الغربيين حين يصرون على مكاشفة الأطفال الصغار بالحقائق الأليمة فور وقوعها، ويرغمونهم على حضور المراسم الحزينة كلها لكي يتقبلوا الواقع من البداية مهما كان مؤلما.

وإن كنا لا نستطيع أن نتعامل مع هذه الحقائق بمثل هذه الواقعية الصعبة، فإننا نستطيع على الأقل أن نسرِّ بها إليهم بجرعات محسوبة تتوافق مع أعمارهم على تخطي هذه المرحلة الحرجة بغير خسائر نفسية بقدر الإمكان، فواصل رعايتك لها ومحاولة شغلها بالنافع والمفيد من أوجه النشاط الفني والثقافي والاجتماعي، ولا تنزعج من دموعها فهي ضرورية ومفيدة إذ: «**لم يخلق الدمع لامرئ عبثا.. الله أدرى بلوعة الحزن**» كما يقول ابن الرومي، ولأن الله أدرى فعلا بلوعة الحزن.. فلا تخف من دموعها فسوف تجف تدريجيا إن شاء الله، إلى أن تنسى أحزانها مع الأيام، وفكر في مستقبلك وحياتك لأن الوحدة أشق على الإنسان أحيانا من أي شيء آخر، ولأن الإنسان الوحيد يعايش أحزانه أطول كثيرًا مما يعايشها غيره. وأنت شاب في مقتبل العمر وقد يكون الأوان قد آن لكي تفكر في أن تبدأ حياتك من جديد حاملا في داخلك أجمل الذكريات.. وأنبل المشاعر لشريكة حياتك الملائكية الغائبة.

اللغز

أنا فتاة عمري 22 سنة.. طالبة بالسنة النهائية بإحدى الكليات وعلى قدر من الجمال، ومن أسرة متوسطة وأوصف دائما بالرزانة والهدوء وبحسن الخلق. ومنذ عامين تعرفت إلى شاب يكبرني بعامين، يعمل في الحي الذي نعيش فيه، اقتنعت بشخصيته الممتازة وبأخلاقه الكريمة وطموحه وطيبته فضلا عن ذوقه ولطفه، ومنذ ذلك الحين أصبحت أنا محور حياته الذي يدور حوله.. يريد أن يحقق أحلامه ليرتبط بي ويوفر لي كل ما أريد.. يريد أن يكمل دراسته لكيلا يسبب لي إحراجا مع أسرتي أو مع صديقاتي وزميلاتي، يريد أن يحظي باحترام الجميع لكي أصبح فخورة به والحق أني قد أصبحت فخورة به وبارتباطي به.

وكان طبيعيًّا أن نفكر في أن نحول هذا الارتباط الخاص إلى ارتباط علني فتقدم لخطبتي، فوقعت الكارثة التي قلبت حياتي حتى الآن، فلقد قوبل طلبه بالرفض التام من جميع أفراد أسرتي، وفي نفس مقابلة التعارف وطلب الخطوبة، وليس هذا فقط بل قوبل الطلب بالإهانة أيضا وبالكلمات الجارحة لخطيبي وكأنه يطلب منهم شيئا مهينا وليس زواجا على سنة الله ورسوله. وانصرف خطيبي يتعثر في خجله وفي خطواته، وبالرغم من ذلك فلم ينبس بكلمة واحدة يرد بها عن نفسه هذه الإهانات بل تضرج وجهه خجلًا.

وتصيب العرق منه وهو يتصنع الابتسام بصعوبة شديدة، ويشكرهم على «نصائحهم» له ويطلب منهم فقط ألَّا «يظلموه» وألَّا يحكموا عليه بالأحكام الجائزة، وأن يعطوا أنفسهم فرصة للتفكير، ورغم كل هذا الأدب.. فلم يتفضل عليه أحد بكلمة واحدة تحفظ عليه ماء وجهه، كأن يعده بالتفكير في الأمر حتى ولو لمجرد المحافظة على الشكل إلى أن يخرج من البيت. هل تعلم لماذا حدث كل هذا يا سيدي؟

لأن خطيبي هذا ميكانيكي سيارات يمتلك عن أبيه ورشة كبيرة لإصلاح السيارات في الحي الذي نقيم فيه، ولإنشغاله بالعمل فلم يواصل الدراسة ولم تكن لديه النية لمواصلتها حتى عرفني وأحبني وأراد أن يتزوجني، فواصل الدراسة المنزلية التي كان قد انقطع عنها وحصل على الإعدادية في العام الماضي فكيف إذن يتجرأ على خطبتي وأنا الطالبة الجامعية.

والعجيب أني انتظرت أن يفاتحني أهلي في موضوع الخطبة فلم يشر إليه أحد من بعيد أو قريب، كأنه أمر مفروغ منه، فلما فاتحت أبي فيه أهانني لأنه لم يتصور أني سأوافق على الخطبة. فلما اتضح له قبولي لها غضب مني، وقد حاولت المستحيل لإقناعه وإقناع إخوتي، وحاول خطيبي المستحيل لكسب ودهم والتقرب منهم بلا فائدة، فاضطررت إلى تهديدهم بأني سأترك الجامعة ولن أتزوج إنسانا غيره مهما تقدم لي من شبان، وإزاء هذا الإصرار اجتمع أفراد الأسرة وتشاوروا، وقرروا الموافقة على الخطبة لكن بعدة شروط أولها: أن يباشر خطيبي عمله هذا من بعيد دون أن يعمل بيديه، لأنهم لا يقبلون أن يكون زوج أختهم «صنايعيا» يعمل بيديه ويقبلونه إذا أصبح «مشرفا» والشرط الثاني: أن ينجح هذا العام «ضروري جدًّا» في امتحان الصف الأول الثانوي.. وأن ينتقل للصف الثاني.

والشرط الثالث: أن تتم الخطوبة فقط في العام القادم، أما الزواج فلا يتم إلّا بعد عدة سنوات مهما كانت درجة استعداد خطيبي لإتمام الزواج في أي وقت.

هذه هي شروطهم يا سيدي، وقد اضطررنا لقبولها مقابل موافقتهم على الخطبة، لأننا كنا كالغريق الذي يتعلق بقشة، لكننا بعد مرور الأيام اكتشفنا أنها شروط صعبة جدًّا.. إذ كيف يترك خطيبي عمله الذي يحبه جدًّا ويحقق من خلاله ذاته وطموحه ومستقبله؟ وكيف ينجح هذا العام في امتحان الصف الأول الثانوي وهو يحس أنه مجبر على النجاح؟ وأنه على نتيجة الامتحان يتوقف مستقبله مع خطيبته.

ولا أخفي عليك يا سيدي أنني أستطيع أن أجبرهم على الموافقة على الزواج ليس بعمل أي تصرف طائش - لا سمح الله - وإنما فقط بإصراري على الزواج من هذا الشاب مهما كانت النتيجة، لكني لا أتمنى ذلك ولا أريده لأني مرتبطة جدًّا بأسرتي وأحب كل أفرادها وأحترمهم، ولا أريد أن أخسر أسرتي بزواجي.. لكني في الوقت نفسه لا أريد أيضا أن أخسر سعادتي ومبادئي وأفكاري، ولا أريد أن أخسر إنسانا أنا واثقة تماما أني سأعيش معه حياة سعيدة كريمة.

إنهم لم يجدوا في خطيبي هذا أي عيب سوى أنه ميكانيكي وأني جامعية، ويرون أن هذا الفارق سيؤدي بزواجنا إلى الفشل لا محالة.. فهل هذا صحيح؟ وهل الدرجة العلمية أو التقارب العلمي أهم في الزواج من التفاهم والأخلاق الطيبة والحب والرضا والاقتناع والاحترام المتبادل بين الزوجين؟

إني أرجوك أن تساعدني في حل لهذا «اللغز».. فأنا لا أريد أن أخسر أسرتي.. ولا أريد أن أفقد خطيبي.. وأرجوك ألّا تنصحني بأن ألجأ إلى أحد الأقارب ليقنع أسرتي فنحن أسرة مستقلة لا يتدخل في أمورنا عم أو خال، كما أرجوك

أيضا ألَّا تقول لي إن خطيبي لو نفذ شروطهم فسوف يتم الزواج.. لأنه لو نجح في تنفيذها.. فسيخلقون له غيرها.. لأنهم ببساطة غير راضين عن هذا الزواج.. وشروطهم هذه لم توضع إلَّا للتعجيز فماذا تقول؟

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إنك يا صديقتي تثيرين سؤالًا صعبًا، الكلام نظريًّا فيه سهل لكن «التنفيذ» قد يستعصى على الكثيرين، فنظريًّا السهل أن يلوم أي إنسان أسرتك لأنها تقف في طريق سعادتك مع من تحبين وترين فيه غدك ومستقبلك.. لكنه عمليا لابد أن يفكر الإنسان قليلا قبل أن يعطي موافقته بصفة عامة على مثل هذا الزواج.. ليس لأن «البطل» فيه «ميكانيكي» شريف يعمل بيديه.. والبطلة جامعية على وشك التخرج.. وإنما لأن القصة كلها تجري في مجال سني محدود يسمح بالتسرع والخطأ وهو سن الثانية والعشرون لك والرابعة والعشرون بالنسبة له.

والأصل في كل الأعمال أنها شريفة.. وقيمة الإنسان وشرفه لا يحددهما نوع العمل الذي يمارسه بقدر ما يحددهما إخلاصه لهذا العمل وقيمه التي يتبعها فيه.. لذلك فلا اعتراض على خطيبك من هذه الناحية إطلاقا.. بل إني لأعجب لنظرة أسرتك المتخلفة إلى قيمة العمل فهم لا يقبلون به «عارقا» «عاملا» بيديه محققا لنفسه وأسرته الحياة الكريمة و «يقبلون» به «تمبلا» يجلس على مكتب بلا عمل ويعيش على عرق الآخرين وتعبهم وعلى استغلال عملائه لأنه سيضيف بالطبع أجر من يحل محله على حساب المستهلك.

يريدونه «أفنديا» كأن مجتمعنا يشكو نقص الأفندية أو كأنه يوفر لهم سبل الحياة الكريمة.

يعرفون شرف المظهر.. ولا يعرفون شرف العمل والجوهر، وهذا عجيب من أسرة مثقفة كأسرتك وإن لم يكن غريبا على مجتمعا.. لأنه بالتحديد أحد أسباب تأخرنا.. فنحن نربط دائما بين «الترقي» في العمل والحياة.. وبين الامتناع عن ممارسة أي عمل مثمر ومفيد سوى «الأمر والنهي» كأننا قادة عظام من قواد التاريخ، وكلما ترقى إنسان في عمله أو في حياته كان مظهر رقيه هو الامتناع عن ممارسة العمل بيديه واستخدام غيره ليقوم به.. وهذا هو ما يترجمه موقف أسرتك من عمل خطيبك وأعجب منه موقفها من مسألة تعليمه.. إنني أؤمن دائما بأهمية التكافؤ الاجتماعي والثقافي بين الزوجين.. لكني من ناحية أخرى لا أرى معنى لتمسك أسرتك بأن يتم خطيبك تعليمه الثانوي العام الذي لا يقدم ولا يؤخر.. ولا يزيده خبرة في مجال عمله.. لمجرد أن يحصل على «لقب» يتناسب مع تعليمك الجامعي.. فهل نشكو مرة أخرى من نقص الأفندية الذين حشرت المواد الدراسية في رءوسهم حشرا لكي يتمسكوا بزيادة عددهم واحدا جديدا.

ثم لماذا كل هذا العناد.. و «الورشة» جاهزة والخطيب ناجح في عمله وطموح إلى توسيعه.

إن التقارب الثقافي بين الزوجين أمر يمكن تحقيقه من أكثر من مصدر عدا المدرسة الثانوية والجامعة، كالقراءة والمسرح والتليفزيون والإذاعة والتذوق الثقافي للأشياء، أما ما يصعب تعويضه حقًّا فهو هذا الاقتناع المتبادل بكل من الآخر، وهذا الاحترام المتبادل بينكما وهذا التمسك الشديد من جانب كل منكما بالآخر.

ولو انصفت أسرتك لرحمته من «عذاب» استذكار مواد دراسية لن تفيده في حياته العملية كثيرًا.. ولمنحته الاحترام والأمان والقبول، واعترفت به عضوًا منتجًا نافعًا من أفرادها وساندت طموحه للتوسع والتفوق في مجال عمله.. فإنها بذلك تخدم الحياة والمجتمع، كما تخدمك وترعاك وتساعدك على تحقيق أحلامك، وإذا كان هناك من نصيحة أقدمها لك.. فهي عليك فقط بالتمهل قليلا في خطوات الزواج لكي تتعمق المشاعر.. وتتأكد حاجة كل منكما للآخر واقتناعه وفخره به.. وأؤيدك تماما في عدم الزواج على غير رغبة الأهل، ولست من أنصاره لأن الإنسان لا يحيا وحده في الصحراء، وإنما يعيش وسط بشر يتفاعل معهم ويؤثر فيهم ويتأثر بهم.. لذلك فإني أدعوك إلى مواصلة الكفاح مع أسرتك للحصول على موافقتها الحقيقية.. ومباركة زواجك لكي تكتمل لكما السعادة الحقيقية بإذن الله، مع تمنياتي لكما.

نداء القلب

أنا يا سيدي شاب في التاسعة والعشرين من عمري، كان أبي موظفًا بسيطًا يعيش في وئام مع أمي ويرعى أسرتي المكونة مني ومن شقيقي الأصغر، وشقيقتي الصغرى، فعشت طفولة عادية تعلمت فيها من أبي الاعتماد على نفسي في كل شيء، فلقد كان يقوم بإصلاح الكهرباء وأعمال السباكة والنجارة في البيت، ويحتفظ بأدوات كل ذلك، ومنه تعلمت من صغري أعمال الكهرباء، ومضت حياتنا عادية إلى أن ضاق بنقص الإمكانيات فسوى معاشه المبكر وهاجر إلى إحدى الدول العربية ليعمل هناك على أمل أن يستقدمنا إليه فغاب سنة. لم تنقطع عنا خلالها رسائله ولا نقوده.. ثم سنة أخرى تباعدت فيها الرسائل والنقود، ثم سنة ثالثة انقطع فيها كل شيء، وعادت إلينا الرسائل لعدم الاستدلال على المرسل إليه.. وحارت أمي في البحث عنه فمن قائل إنه هاجر من هذا البلد إلى بلد آخر، ومن قائل إنه غيَّر عنوانه وتزوج وأنجب ولولا المعاش الذي تقبضه أمي بتوكيل منه لهلكنا من الجوع.

وبدأنا نستسلم لليأس من عودته أو عودة رسائله.. وعجز المعاش الصغير عن تلبية مطالبنا، وكنت في السادسة عشرة من عمري حين وجدت نفسي مسئولًا عن

أسرتي، فحملت أدوات الكهرباء البسيطة ونزلت إلى محل الكهربائي القريب من بيتنا، وقابلت صاحبه وشرحت له ظروفي وطلبت منه السماح لي بالوقوف أمام محله 3 ساعات كل يوم لألبي طلبات إصلاح الكهرباء في المنازل على أن يستفيد هو بثمن الأدوات التي تشترى من محله، ورحب الرجل بي وبدأت حياتي العملية في هذه السن المبكرة، وأصبحت أخرج من المدرسة فأتناول الغداء ثم أنزل إلى المحل وأعود في السابعة فأذاكر حتى العاشرة وأنام، وأسهم عملي الجديد في تيسير حياتنا بعض الشيء، فأصبحنا نشتري الملابس الضرورية وندفع إيجار الشقة بانتظام، ولم أعان صعوبة كبيرة في الدراسة فانتقلت إلى الثانوية العامة وضاعفت من ساعات المذاكرة مع العمل حتى كدت أهلك في أيام الامتحان، وكلل الله مجهودي بالنجاح فيها بمجموع ضعيف، ولم يقلل ذلك من فرحتي ولا من فرحة أمي بهذا النجاح في مثل ظروفي.

أما صاحب المحل فقد استقبلني بعد ظهور النتيجة بتوزيع زجاجات المياه الغازية على جيرانه احتفالاً بنجاحي، وقبلني فخورا، فدمعت عيناي من التأثر وأنا أرى من لا تربطه بي صلة الدم سعيدا بي، ومن أنجبني من صلبه لا يهمه من أمري شيئًا نجحت أم رسبت.. جعت أم طعمت، لكني على أية حال كنت قد رضيت بنصيبي من زمن طويل، ورشحني مجموعي للالتحاق بمعهد فوق المتوسط فرحبت بذلك لأنه يختصر المشوار ويعطيني شهادة تدفع عني شر الحاجة عند الضرورة، وأقبلت على دراستي بنشاط، وفي إحدى المحاضرات انقطع النور عن القاعة وطلب الأستاذ إحضار المختص، فتقدمت من فوري وتطوعت لإصلاحه ونفذت ذلك بالفعل في دقائق، فسألني كيف اكتسبت هذه الخبرة، فرويت له قصتي فعبر عن إعجابه بي.. وجعل مني مادة للحديث في المحاضرة مؤكدا أن من يستطيع أن يقوم بأعمال الإصلاح البسيطة هو إنسان متحضر يُعْتمد عليه، وجعلني هذا

الحديث معروفًا بين زملائي بخبرتي بالكهرباء وإصلاح الأجهزة الدقيقة، وذات يوم اقتربت مني طالبة وعرضت على جهاز تسجيلها الذي تحمله في المحاضرات وطلبت إصلاحه، فأخذته معي وأعدته إليها في اليوم التالي سليما، ورفضت قبول مكافأة عن الإصلاح فكان ذلك بداية لصداقة جديدة بيني وبينها.

واستمرت هذه الصداقة طوال العام الأول، وفي منتصف العام الثاني تحولت إلى ارتباط عاطفي عميق، وسألتني عن ظروفي فقصصت عليها كل شيء بصدق، وعرفت منها إنها ابنة موجة بالتعليم قارب سن المعاش.

وتخرجنا في المعهد هي بتفوق وأنا بدرجات متوسطة لانشغالي بعملي الذي يعول أُسرتي، واستمرت علاقتي بها بعد التخرج عن طريق تليفون المحل، وفي لقاءات متباعدة، وبدأنا نفكر في المستقبل فطالبتني بالتقدم لها، واستشرت أمي فأشفقت عليَّ من الرفض لأني غير جاهز، لكني استخرت الله وذهبت لمقابلة أبيها، وشرحت له كل ظروفي، وإني أكسب ما يعين أسرتي على الحياة وما يسمح لي بادخار البعض لتكوين مستقبلي، وقلت له إنني أستطيع الزواج في شقة أمي الواسعة وأستطيع أيضا الحصول على شقة خلال 3 أو 4 سنوات، فوعدني بالتفكير والرد، وفي الموعد المحدد ذهبت إليه ففوجئت به يتحدث معي في موضوعات عامة، ثم يطلب مني فجأة تغيير بعض أسلاك الكهرباء التالفة بالشقة. فقمت بذلك عن طيب خاطر، وانصرفت بلا رد شاف، واتصلت بي فتاتي تتعجلني لمقابلة أبيها مرة أخرى، لأن أحد أقاربها قد تقدم لها، فذهبت إليه من جديد.. فإذا به يطلب مني إصلاح الثلاجة فأصلحتها وانصرفت بلا طائل، واستمرت الحال على هذا المنوال طوال سنة كاملة أذهب إليه فلا يرفضني ولا يقبلني ويطلب مني إصلاح أعطال الكهرباء في شقته أو النجف.. أو الأباجورة.. إلخ.

ورأيت الإشفاق في عين أمي، لكنني لم أيأس وأفرغت همي في العمل وفي الدخول في مقاولات صغيرة لأعمال الكهرباء وفي تلبية مطالب إخوتي، وأخيرًا اتصلت بي فتاتي لتبلغني أن أباها وأمها يرفضانني لأني غير جاهز بالشقة، وأعبائي الأسرية كبيرة ولعدم وجود أبي.

وتعجبت من أن يكون غياب أبي سببًا أحاسب عليه، وأنا ضحية لهذا الغياب ولست مسئولًا عنه.. لكنني استسلمت لقدري ووعدت فتاتي بألَّا أيأس وبأن أبني حياتي لأكون جديرًا بها.

وفي هذه الأثناء نجحت بمعجزة في الحصول على وظيفة بإحدى المدن الجديدة القريبة من القاهرة، كان شفيعي الأول فيها هو خبرتي بالكهرباء رغم شهادتي النظرية، وبعد شهور تسلمت شقة جميلة من غرفتين وأثثتها بأثاث بسيط، واشتريت «فسبا» للتنقل بها بين مقر عملي وبين أسرتي التي أتحمل مسئوليتها.

واتصلت بي فتاتي تطلب مني التقدم لها مرة أخرى، فقلت لها إنني جرحت بما فيه الكفاية وأني لن أتقدم لها إلَّا إذا ضمنت لي القبول وطالبتها بتحمل مسئوليتها في الدفاع عن سعادتنا، فقالت لي إنها واقعة تحت ضغط أسرتها لقبول قريبها وهو تاجر ميسور وجاهز بالشقة، وأنها تطالبني أنا بالتحرك. فاستجمعت إرادتي وتنازلت عن كرامتي وذهبت لمقابلة أبيها، وبعد الأحاديث التقليدية هممت بالدخول في الموضوع فإذا به يطالبني بفحص التليفزيون لأنه كذا.. وكذا.. فقاطعته بأدب وقلت له يا سيدي إنني لم أحضر إليك لأتحدث عن التليفزيون، وإنما عن ابنتك فأنا وهي متحابان منذ ٥ سنوات، وأنا شاب مكافح كان أبي موظفا مثلك وأسرتي شريفة، وإن كانت بسيطة وأنا موظف ولي نشاط خاص اكتسب منه ما يكفي لتحمل مسئولية أسرتي ورعاية ابنتك.. فلماذا تحرمنا من حقنا في السعادة؟!

فبدأ يتحدث.. ويؤكد لي أنه يقدر ظروفي لكنه أب ومن واجبه أن يطمئن على ابنته، وأن يوفر لها الأمان، ثم راح يعدد لي أسباب الرفض على أصابعه كأنه يلقي درسًا في المدرسة.. وكل أصبع يشير بها تنغرس في قلبي كأنها خنجر مسموم.. وفي النهاية غادرت بيته مطعونا في قلبي وفي كرامتي ومشلولا بالقهر والعجز.. وذهبت إلى بيت أمي وكانت النتيجة واضحة في وجهي فلم تسألني.. ولم تناقشني حين قلت لها إني سأقيم في الشقة الجديدة بصفة مستمرة وإن عليها أن تأتي مع إخوتي كل خميس لزيارتي، واعتزلت الدنيا في هذه المدينة الجديدة عدة شهور لا أذهب إلى القاهرة وكلما جاءت أسرتي تسقطت من شقيقي الذي حل مكاني في محل الكهرباء أخبار فتاتي، فيقول لي إنها تسأل عني كل يومين في التليفون، وإنها قد استسلمت في النهاية فقبلت خطبة قريبها.

وبعد شهور أخرى قال لي شقيقي إنها اتصلت به وأبلغته أن خطبتها قد فسخت لعدم التوافق، وإنها تطالبني بالتحرك من جديد، لكني بعد أن سمعت حيثيات الحكم بإعدام حبي على أصابع أبيها، لم أكن على استعداد لأن أتعذب من جديد بأمل كالسراب، وتفرغت تماما للعمل ولمقاولات أعمال الكهرباء الصغيرة.. وذات صباح كنت أباشر إحدى العمليات في المدينة حين جاءني عامل وأنا معلق فوق سلم عال وقال لي: «فيه ناس عايزينك يا باشمهندس»، فنزلت لأجد فتاتي واقفة أمام المبنى في يدها حقيبة صغيرة.. تنظر إلي في انكسار.. وعتاب واندفعت أرحب بها وأحمل عنها الشنطة وأمسكت بيدها وسرنا في الطريق إلى المبنى الإداري، وجلسنا في مكتبي وقبل أن أسألها عن أي شيء انسابت دموعها.. وانسابت معها دموعي ومضت دقائق طويلة قبل أن نتمالك أنفسنا ونتحدث عما جرى، وعرفت أن خطيبها هو الذي فسخ الخطوبة بعد أن استشعر جفاءها وعدم

رغبتها فيه.. ثم طلبت مني في النهاية أن استدعي المأذون وأن أعقد قراني عليها لأضع أسرتها أمام الأمر الواقع، وأن هذا هو الحل الوحيد لقصتنا معا.

وأكدت لها أني لن أفرط فيها مهما حدث.. وقد عانيت جحيم فقدها وذقت مرارته.. لكني أرفض أن أتزوجها على غير رغبة أهلها وسأعيدها إلى بيتها.. وأقابل أباها وسأطالبه للمرة الأخيرة بقبول ارتباطي بها.. بالطريقة الطبيعية لأنها أكرم له ولي ولأسرتينا، وإذا أشار إليَّ بأصابعه أو حدثني عن التليفزيون فسوف أحطمه فوق رأسه.

فانهارت حبيبتي وبكت واتهمتني بالتخلي عنها ونهضت غاضبة تريد أن تركب الأتوبيس فأسرعت وراءها وأصررت على أن أوصلها «بالفسبة».. فقبلت مرغمة وهي ساخطة وترفض الحديث معي طوال الطريق.. ولا تجيب عليَّ سوى بكلمة واحدة هي يا خاين، ثم تركتني إلى بيتها وهي تقسم لي إنها سترفضني إذا وافق أبوها علي.

إنني أكتب إليك هذه الرسالة من القاهرة وقد حصلت على أجازة من عملي لأنهي هذا الموضوع، وأسألك هل أخطأت حقًّا يا سيدي برفضي عقد قراني عليها بغير رضا أهلها.. وهل كنت جبانًا كما تتهمني فتاتي.. وهل سيوافق أبوها على قبولي بعد كل ما جرى.. ولو وافق هل ستنفذ حبيبتي قسمها.. وترفضني حقا كما توعدتني؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا يا صديقي لم تخطئ حين رفضت أن تضع أسرة فتاتك أمام الأمر الواقع، وأن تنهي عذابك الطويل بهذه الطريقة. فلقد تصرفت بدافع قوي من إحساسك بالمسئولية العائلية، فرفضت لفتاتك ما لا تقبله لشقيقتك، وأبيت أن تضع أباها في الحرج الذي لا ترضاه أنت لنفسك إذا وضعتك فيه ظروف مشابهة، مع إنك لو استجبت لرغبتها لما لامك كثيرون بعد كل هذا الكفاح من جانبك لتنال فتاتك، وكل هذا التحجر من جانب أبيها، لكنك اخترت الحسنى والتصرف النبيل وهذا هو قمة الإحساس بالواجب والمسئولية عمن تحب، ويبدو يا صديقي أن تحملك لمسئولية أسرتك منذ الصغر قد أكسبك نضجًا وعقلانية يفوقان سنك بمراحل فهل مثلك يرفضه العاقل؟ وهل من المنطق أن تحرم من فتاتك وتحرم هي منك وأنتما تكافحان منذ 5 سنوات لنيل موافقة أب يرى غضاضة في قبولك لظروفك العائلية، ولا يرى أية غضاضة في استغلالك وتكليفك بإصلاح أجهزته المنزلية وتحدثه عن ابنته فيحدثك عن أكياس الكهرباء.

إنني من المؤمنين دائمًا بأهمية موافقة الأهل على الزواج.. ومن المؤمنين دائما بسمو منزلة الأب ومسئوليته عن أبنائه، بل ولعلي من المعجبين أيضا بما تعطيه الفلسفة الكونفوشية من منزلة للأب في الأسرة ترفعه إلى منزلة الإمبراطورية في الدولة، لكن هذه الامبراطورية لابد أن تقوم دائما على دعائم من الرحمة والعدل والفهم لمشاعر الأبناء وتقديرها، لكي يستحق الأب منزلته فيها ولكيلا تنهار هذه الامبراطورية من أساسها.. ويشق عليها رعاياها عصا الطاعة.

والرسول الكريم الذي ينهي عن عقوق الأبناء للآباء ويطالبنا دائما بأن نعرف للأب حقه وفضله هو نفسه من يقول: رحم الله والدا أعان ولده على بره. أي أعانه على أن يكون بارا به بعدله معه وبرحمته له، وما فعله أبوها معها ليس من الرحمة ولا من العدل في شيء، فرغبة ابنته فيك صادقة، وليس من العقل أن نحرم أبناءنا من السعادة ونحن نتصور أننا بذلك نحققها لهم، ونحن لا نستطيع مهما أوتينا من الحكمة أن نحس بمشاعرهم ولا أن نختار لهم ما لا يقبلون.. فلماذا هذا العذاب وطريق السعادة واضح.

إنك لست جبانًا يا صديقي كما تتهمك فتاتك في غضبها، بل أنت شجاع شجاعة العقل والقلب معًا. فاذهب إلى أبيها للمرة الأخيرة وإرو له كل ما حدث بلا مواربة.. وقل له إنك كنت تستطيع أن تضعه أمام الأمر الواقع لكنك رب أسرة مثله ولا تقبل له ما لا تقبله لنفسك، لذلك فقد فضلت أن تأتي البيوت من أبوابها.. فإما أن يوافق للمرة الأخيرة.. وإما أن تصبح أنت في حل من أي تصرف تراه مناسبًا للجمع بينك وبين فتاتك، وهي في النهاية لن تعدم الوسيلة لتحقيق رغبتها.. ولا أنت كذلك، فإن استجاب لك كما ينبغي لعاقل أن يفعل، كان بها.. أما إذا رفض من جديد وحدثك عن التليفزيون فأنت في حل من أن تحطم التلفزيون والثلاجة أيضا فوق رأسه المتحجر.. والله معك.

أما قسم فتاتك برفضك إذا قبلك أبوها.. فلا تخش شيئًا منه فهو ليس سوى انفعال عابر يعبر عن ضيقها وقنوطها، فهي في ضيق أشد من ضيقك وسوف تكفر عن حنثها باليمين حين تتحقق الأحلام، وستكون أسعد الناس بأداء الكفارة ودفع هذا الثمن البسيط مقابل أن يجمع الله بينكما بعد طول انتظار.

شيء من الاحترام

قررت أن أكتب إليك لأن الموضوع الذي أريد أن أعرف رأيك فيه مهم جدًّا بالنسبة لي. وربما كان كذلك لكثير من الزوجات والأزواج، فأنا سيدة تزوجت منذ أكثر من عشر سنوات بعد قصة حب، وتحملت مع زوجي الحياة بظروفها الحلوة والمرة، وقد بدأنا حياتنا الزوجية من تحت الصفر، لأن أبويَّ ساعداني بالقليل الذي استطاعا تقديمه لي، في حين لم يستطع أبواه لظروفهما العائلية أن يقدما لزوجي أي شيء، وبكفاحنا معا استطعنا وحدنا أن نصنع المعجزات دون مساعدة أحد لنا، ونحن فخوران بذلك، وقد اكتملت سعادتنا بمجيء الأولاد، لكنني لاحظت في العامين الأولين من زواجنا، أن زوجي لا يكف عن الحديث بمرارة عن عدم مساعدة أبوي له عند زواجنا، ويتهمهما بأنهما لم يحباني بالقدر الذي أحبا به أختي الكبرى، لأنهما عند زواجها قدما لها بضعة آلاف من الجنيهات، في حين أنهما قدما لي بضع مئات، مع إن أختي تزوجت قبلي بعشر سنوات وكانت ظروفهما تسمح لهما وقتها بتقديم ما قدماه لها، ومع أنني لو قارنت حالنا الآن بحال أختي لوجدنا حالنا أفضل بما أنعم الله علينا من مال وبنين، وأزعجني بشدة أنه كان يتبع حديثه دائما عن هذا الموضوع بسباب جارح لأهلي جميعًا، وكل من له صلة بنا وكنت أحزن وأبكي كثيرًا وأسكت في البداية، ثم بدأت أندفع في الدفاع عنهم

بكل ما أعرف من منطق وحجة في السنوات التالية، ثم بدأت أرد له الكلام عن أهلي بالكلام عن أهله ردًا لكرامة أهلي التي يهدرها، وكان ذلك مفاجأة له أذهلته وضايقته كثيرًا، فبدأ يضربني وساءت بيننا العلاقة لأقصى درجة لمدة عامين، حتى وصلنا إلى باب المأذون مرتين لكن دون أن يتم الطلاق في اللحظة الأخيرة، لأنه يحبني كثيرًا ويتمسك بي، وبعد أن وصلنا إلى هذا المستوى كففت أخيرًا ومنذ عامين عن رد الإهانة له لأني أقنعت نفسي بأنه لن يكف عن السباب مهما فعلت، ولأنه لا نتيجة لردي عليه سوى أن يتفاقم الموقف ويصل إلى مستوى لا أرضاه لنفسي، وقد ناقسته طويلًا في ذلك وكان منطقه مختلفا عن منطقي وهو يراه سليمًا وأنا أراه أعوج ولتحكم سيادتك بيننا.

إنه يقول إن العلاقة بين الزوجين علاقة حميمة لدرجة أنها لا تُبقْي مجالًا للاحترام بين الزوجين، وإنه ينبغي أن يكون الزوج فيها على طبيعته والزوجةَ على طبيعتها، ومادام هو يحب السباب والشتائم فينبغي أن أتقبل ذلك بلا غضب، أما منطقي أنا فهو أن العلاقة الزوجية هي أكثر العلاقات تعرضًا للمشاكل اليومية، مما يجعلها عرضة دائمًا للخلافات، وأن الاحترام ضروري لها، ولكي يخفف من حدة الخلافات ويحصرها في دائرة ضيقة، وإنه دون هذا الاحترام تصبح الحياة جحيمًا.. فهل من المستساغ مثلًا أن يتعامل هو مع زملائه في العمل بالاحترام والذوق الواجبين ثم لا يعاملنا نحن زوجته وأولاده بذلك؟ وهل من المستساغ أن يستخدم ألفاظًا نابية داخل البيت وأمام أولاده الذين يعتبرونه مثلهم الأعلى، ويكون مهذبًا رقيقًا مع الآخرين الذين لا يعتبرونه المثل الأعلى؟

ثم لماذا يستفزني ليل نهار بسبب أمي؟ وكأنه ليس في حياتنا موضوعات أهم نتحدث فيها، مع أنها لا تزورنا إلَّا مرة كل شهر ولا نزورها إلَّا مرة كل شهر وهي رغم أنها من أسرة عريقة فإنها ليست متكبرة وتحترمه، ولا ذنب لها إلَّا أنها رفضت

زواجنا في البداية ثم قبلت به، وأنها كانت ميسورة عند زواج أختي ولم تكن كذلك عند زواجنا، إنه يصر على رأيه.. وأنا أصر على رأيي.. وقد أثار أشجاني أن شاهدت منذ فترة قريبة فيلمًا عربيًا قديمًا في التليفزيون وهو فيلم «البيت الكبير». فأدهشني فيه ما كان بين الزوجين من احترام حتى في أحلك ظروف الحياة الزوجية وهي الطلاق وزواج الزوج بزوجة أخرى، ثم عودته للبيت الكبير بعد طلاق الزوجة الجديدة اللعوب، ففي أحلك هذه الظروف كانت الزوجة القديمة لا تتحدث عن زوجها إلَّا بالاحترام الكامل، لأنه أبٌ لأولادها رغم كل شيء، ولم يكن الزوج يتحدث معها أو عنها إلَّا بكل الاحترام لأنها أم أولاده، وكانا يتبادلان الألقاب فتقول له يابك ويقول لها ياهانم وترد غيبته ويرد غيبتها.

وقد أثار هذا الفيلم أحزاني.. إنني لم أختلط بأسر سوى أسرتي الكبيرة مع أبي وأمي وأسرتي الصغيرة مع زوجي وأولادي، ولا أعرف هل حقا يجب ألَّا يكون هناك احترام بين الزوجين كما يقول زوجي أم أنه ضروري كما أقول وأعتقد؟ إنني أعتقد أن الحياة تصبح مستحيلة بغير هذا الاحترام، وأنا مازلت حتى الآن أستأذنه عند الخروج.. وأستأذنه إذا تركت المكان الذي فيه لطلب أو عمل، وأقول له من فضلك إذا طلبت منه شيئًا، وأشكره إذا قدم لي شيئًا وأعتذر له إذا أخطأت عفوًا في حقه، وهو مستمر في شتائمه وسبابه بدعوى عدم وجود الاحترام بين الزوجين.

فهل معقول أن كل الأزواج قد تركوا الاحترام في علاقاتهم بزوجاتهم؟ وأن كل الزوجات لا يحملن لأزواجهن أي نوع من الاحترام؟ وأن الحواجز حين تنهدم بين الزوجين لا يظهر من ورائها سوى إنسان بلا ذوق ولا احترام ولا أدب في المعاملة؟ وكيف أقنع زوجي بأن الحب وحده لا يكفي لنعيش حياة زوجية سعيدة لأن الاحترام مهم أيضا لكيلا تتدمر نفسية الطرف الآخر في العلاقة الزوجية؟

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا أعرف يا سيدتي على وجه التحديد ما إذا كان كل الأزواج قد تركوا الاحترام في علاقاتهم بزوجاتهم أم لا؟ لكني أعرف شيئًا واحدًا هو أن أنجح الزيجات وأطولها عمرًا وأحفلها بالسعادة هي الزيجات التي تنطوي على قدر من الاحترام المتبادل بين الطرفين، بل إن العلاقة الزوجية السليمة تحتاج في رأيي إلى ما هو أكثر من الحب والاحترام، لأنها تحتاج إلى الاقتناع الداخلي بشخص الطرف الآخر وإلى الإعجاب به أيضًا، لذلك فإني لست من رأي زوجك في أن الزواج يسقط الحواجز بين الطرفين بحجة أنه علاقة حميمة وخاصة. فهو يسقط الحواجز فعلا لكنه يسقط حواجز الغربة والحساسية والخجل العاطفي، وينسج بدلًا منها روابط الألفة والفهم والثقة والتسامح والتماس العذر دائمًا للآخر، وهذا الاحترام الذي أقصده ليس من الضروري أن يعبر عن نفسه في بعض المظاهر الشكلية المتكلفة لكنه من الضروري جدًّا أن يكون راسخًا في الأعماق، لينعكس بغير تكلف على علاقة كل طرف بالآخر، وليس من الحب ولا من الاحترام في شيء أن يؤذي الشريك مشاعر شريكه بتجريح أعزائه وأسرته، أو الألفاظ النابية التي تنطلق من فمه كالقنابل الطائشة.. ومن التناقضات العجيبة في حياتنا أن يخص البعض الغرباء بالاحترام والمعاملة المهذبة والكلمات الرقيقة، ثم يحجبون كل ذلك عن شركاء الحياة بحجة سقوط الحواجز بينهم. وبعض الأزواج والزوجات يقعون في هذا التناقض، ويعيشون حياتهم أحيانا بازدواج غريب في الشخصية، فنراهم محبوبين مجاملين

معروفين بعفة اللسان في أوساطهم الاجتماعية.. ثم نراهم في الوقت نفسه أجلافا خشنين سليطي اللسان في حياتهم الخاصة ومع أحبائهم وشركائهم، وهو تناقض غريب حقًّا؛ لأن الإنسان إذا استطاع أن يكون مهذبًا مع الآخرين فإنه يستطيع أيضًا أن يكون مهذبًا ورقيقًا مع أعزائه الذين يخصونه بحبهم ومشاعرهم.

إنني أنصحك يا سيدتي بالتمسك برأيك.. وبالاستمرار في معاملة زوجك بالاحترام الإنساني الذي يليق بالرباط المقدس الذي يجمع بينكما.. حتى لو لم يستجب لما تدعينه إليه.. فمن يحترم الآخرين فإنما يحترم نفسه في البداية، ومن يسيء إليهم فهو يسيء إلى نفسه وإلى صورته في أعينهم بقدر ما يسيء إليهم.. إن تغيير الطباع أمر صعب للغاية لكنه ليس مستحيلًا.. ومن العوامل المساعدة على تغييرها المثل والقدوة اللذان يتأثر بهما الإنسان تأثرًا لا إراديًا في بعض الأحيان. فاستمري في احترامك له لعله مع تجارب الحياة ومرور الأيام يتعلم منك ما ينبغي أن يتعلمه من أن الحب وحده لا يكفي لاستمرار الزواج.

رسالة من خطير

أكتب إليك وما كنت أظنني سأكون يومًا أحد الذين يكتبون إليك. ولكن رأيت اليوم واليوم فقط أن أكتب إليك، لا لأن هناك مشكلة محددة ولكن لأعرض عليك وعلى قرائك صورة لمواطن وأسرة مصرية تعيش في نهاية القرن العشرين، في بلدنا الحبيب، وأبدأ بأن أقدم لك نفسي أولًا فأقول لك: إني إنسان نشأ في أسرة متوسطة لأب تاجر شريف في إحدى عواصم المحافظات المحيطة بالقاهرة، كافح خلال الفترة ما بين الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن بظروفها الصعبة على مصر لكي يتخرج الأبناء الثلاثة في الجامعات، وكذلك ابنته الوحيدة أيضًا بهدف أن يبعدهم عن هموم التجارة التي قاسى منها هو خلال الحرب الأخيرة كتاجر شريف في تجارته ومعاملاته.. وأنا أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة، لست أكبرهم ولا أصغرهم، لكني كنت أول من أنهى دراسته الجامعية منهم، ومكنني والدي من أداء فريضة الحج وأنا في الجامعة، وعملت معه بعد التخرج في مشروع تجاري ثم اختلفنا في الرأي فتركت المشروع إلى الوظيفة.

عملت موظفا وكنت مرموقًا رغم صغر سني وحداثة تخرجي، وأصبحت على قمة العمل بجهدي وليس بأقدميتي وعرفني الرؤساء وأصبحوا يسندون إليَّ أعمالًا لا يسندونها إلى رؤسائي.

وتزوجت بمعاونة والدي وقطنت في القاهرة بعد نقلي إليها وأنجبت 5 أولاد ثلاث بنات وولدين، كان همي الأكبر وشاغلي الأعظم هو تعليمهم وتربيتهم وتأديبهم وغرس المثل فيهم بالقدوة والتوجيه والمعايشة، وعشت سعيدًا مع عائلتي هذه. ولجهدي ونشاطي وعطائي فقت كل قرنائي في درجاتي المالية ووظائفي الأدبية، حتى لقد تم اختياري للعمل في الوزارة المركزية في تخصصي عند تشكيل هذه الوزارات بعد الوحدة مع سوريا، ثم تم اختياري للعمل في سوريا عدت بعدها عقب الانفصال مع أسرتي إلى مصر، وكان عملي في موقع ممتاز ومتناسب مع قدراتي وعطائي، وفوجئت خلال فترات تشكيل مجالس إدارات الشركات الصناعية باختياري عضوًا في مجلس إدارة شركة صناعية كبرى ومديرًا لأحد أوجه نشاطها، وبذلك خرجت من وظائف القطاع الحكومي إلى القطاع العام، وكان ذلك تجربة جديدة بالنسبة لي.. عمل جديد ومجتمع جديد في فترات تكوين وإرساء قواعد لهذا العمل، فبذلت فيه جهدي كاملًا وأرسيت خلال عملي قواعد لنظام جديد له علاقة بهذه الشركة الصناعية، لم يكن معروفًا في مصر، وتكونت حولي مجموعة من خيرة الشباب أسست بهم مدرسة لهذا العمل الجديد على أسس من العلم والأخلاق الفاضلة والتفاني وأداء الواجب أولًا قبل البحث عن الحقوق.

ولأني ليست لديَّ صفات الذين يتسلقون في مثل هذه المجتمعات عانيت الكثير، إلَّا أن الله سبحانه وتعالى كان إلى جانبي في جميع المواقف، وفشلت كل محاولات إقصائي عن هذا الموقع أو إسقاط عضوية مجلس الإدارة عنِّي، ثم أنشئت شركة أخرى في القطاع نفسه وتطلب الأمر تكوين مجلس إدارة جديد لها من خارجها، فنقلت إلى هذه الشركة عضوًا بمجلس إدارتها ومديرًا لأحد أوجه نشاطها المهمة ذات العلاقة بالجمهور والقطاع الخاص ووكلاء الشركات الخارجية، ومن جديد

بدأت كما حدث في المرة الأولى، ووضعت أسسًا جديدة لنظام العمل الجديد على نفس القواعد، وعملت على تكوين مجموعة من المديرين بفروع نشاط هذا العمل المنوط بي، ونجحت في ذلك إلى حد ما حتى خلا موقع رئيس الشركة بترقيته إلى مكان أعلى بنفس القطاع، فلم يترك موقعه قبل أن ينجح في تعييني مكانه رئيسًا لمجلس إدارة هذه الشركة.

وبدأت مرحلة جديدة أخرى من حياتي، متمسكًا بالمبادئ، ومارست مسئولياتي في مواجهة الكثير من الصعوبات والعقبات محاولًا تذليلها، ورغم أني مكثت في هذا العمل نحو عامين فإنني أدركت أنني يجب أن أترك موقعي هذا ولو بالاستقالة لأتيح الفرصة لقيادة أخرى قد يمكنها أن تنجح فيما فشلت فيه، وهو عدم قدرتي على اتخاذ القرار الصالح المحقق لأهداف المؤسسة التي أعمل بها والخير للعاملين بها.

وقد رأت رياستي بعد أن تقدمت بالاستقالة أهمية الاحتفاظ بي كخبرة وقيادة ونموذج لرجل أعطى ويعطي، ولذا نُدِبْتُ للعمل مستشارًا للهيئة المشرفة على هذه الشركة حتى أصل إلى سن المعاش.. وهم يعلمون تمامًا أن ندبي إلى العمل هذا لن يوقف نشاطي العملي، وأنني سأجعل من هذا الموقع «أعمال المستشار» عملًا نافعًا محققًا للكثير ليس للشركة فقط التي تركتها بل لجميع شركات القطاع.

لقد أطلت كثيرا في هذا التعريف، ولكنه مهم جدًّا قبل أن أبدأ في سرد ما أظنه مشكلة تواجه كل الشرفاء.. فما المشكلة؟ المشكلة أنني عشت بدخلي من الوظيفة والتي كانت دائمًا مرموقة ومستواها المادي أعلى من نظرائي، ومن هم في مثل سني ومؤهلي وتخصصي ومدة خدمتي، ووصلت إلى درجات عالية في سن مبكرة، أي أني أحصل على الراتب الكبير الذي أحصل عليه منذ فترة طويلة.. وليس من

عامين أو ثلاثة أعوام، ولقد عشت بهذا الراتب وبما آل لي من ميراث بسيط من والدي هو نصيبي في بعض العقارات في الأرياف لا يتعدى عائدها بضع مئات من الجنيهات سنويًا، وقد علمت أولادي.. وتقدم أحد التجار إلى ابنتي الكبرى وتم زواجها منه، ولم يحملني هذا التاجر أعباء كثيرة في تجهيزها لأنه قام بالعبء الأكبر من جهة، ولأنني ليس لدي فائض من جهة أخرى، ثم انتهت الابنة الثانية من دراستها الجامعية وتقدم لها زميل في الدراسة وتم زواجها ويعلم الله كيف أمكنني أن أدبر لها جزءًا من احتياجات تجهيزها بالديون، ولولا أن زوجها كان صادقًا ولماحًا لما أمكن لنا أن نجهز له زوجته بالصورة المناسبة إلى حد ما.. وأنهت الثالثة دراستها الجامعية وتم تعيينها ويؤرقني الآن أمر تجهيزها إذا ما تقدم لها الزوج المناسب.

أما عن الذكور فقد أصبحوا ثلاثة بعد أن رزقنا الله الابن الثالث في سن متقدمة، وقد أنهى الابن الأول وهو الرابع في ترتيب الأبناء دراسته الجامعية والتحق بوظيفة في إحدى شركات القطاع العام «خارج القطاع الذي أعمل به»، وتؤرقني جدًّا حياته المستقبلية، فراتبه لا يكفيه وهو يعيش معنا وأكله وخدماته مع الأسرة، ولا يتحمل أي شيء في نفقات المنزل لأننا لا نرغب في ذلك وهو ينفق على نفسه لشراء ملابسه ومواصلاته ونفقاته الشخصية، ولا يكفيه راتبه وليس لديه أي فائض من هذا الدخل، مشكلته ومشكلتي أنه قارب أو تعدى سن الخامسة والعشرين، ولا أعرف كيف سيتزوج وكيف سيفتح له منزلًا له ولزوجته ومن أين وبكم ومتى؟

والابن الثاني - الخامس في الترتيب - في الصف الثالث بإحدى الكليات العملية خارج القاهرة، تكلفني مواصلاته الشهرية أربعين جنيهًا خلاف مصروفات الكلية والكتب ومستلزمات الدراسة العملية.

والابن الأخير في الصف السادس بإحدى مدارس اللغات الرسمية في القاهرة، وأدفع له مصروفات سنوية وسيارة نحو 300 جنيه، وأمامه فترة طويلة لإنهاء دراسته بالمدارس الإعدادية ثم الثانوية، ثم الجامعية.

هذا هو الوضع الآن لكني بعد أسابيع قليلة سأخرج إلى المعاش وينقص الدخل الذي أنفق منه على الأسرة بعد الإحالة إلى المعاش بنسبة تزيد على 50٪ أني أعلم على اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وقد عملت دائمًا بمبدأ ألَّا أقبل أي عمل خارجي ولو مجرد استشارة لأي شركة أو مصنع بأجر، مادمت آخذ راتبًا من عملي الحالي، فهل أتنازل عن هذا الترفع واستجدي من البعض الاستفادة من خبرتي؟ أو انتظر حتى يطلب أحدهم منِّي العمل معه بعد المعاش؟ هذه مشكلة أخرى تتفاعل مع مشكلة نقص الدخل إلى أقل من 50٪ بعد الإحالة إلى المعاش. وفي النهاية أقول لك إنني مع دخلي الكبير نسبيًّا بالمقارنة مع نظرائي في المجتمع، فإن دخلي يكفي بالكاد احتياجات الأسرة الطبيعية من مأكل وملبس ومسكن وتعليم دون إسراف، ولا يتحمل هذا الدخل أي أعباء جديدة كالمرض والعلاج وتجهيز الابنة الثالثة أو مساعدة الأبناء الذكور عند الزواج، لا يكفي أيضًا إذا زادت حدة الغلاء على ذلك، وأمَّا بالنسبة للابن الأصغر فإن انتهاء أخيه الأكبر من الدراسة قد يتيح أن يتحول إليه ما ينفق عليه الآن، ورغم إني أقطن في مسكن لا تتعدى أجرته الشهرية خمسة عشر جنيهًا، وليس عندي سيارة خاصة تحتاج إلى نفقات وليس عليَّ نفقات شهرية كبيرة سوى مبلغ 20 جنيها شهريا نفقة معينة فرضتها على نفسي لمعاونة والدتي في مواجهة نفقات حياتها التي تصر أن تكون بمفردها، ومع كل هذا فعندما تطلب مني زوجتي أي زيادة لمواجهة ظرف خاص وأجد نفسي عاجزا عن سدادها أشعر بضآلة نفسي وصغرها، لأنني مع هذا

الجهد والدخل لا أستطيع أن أسد احتياجات الأسرة. خصوصًا أني لست مسرفًا على الإطلاق وليست لي مصروفات شخصية ولا أدخن ولا أشرب أي نوع من المكيفات حتى الشاي والقهوة إلّا عند الضيافة لصديق في المكتب أو المنزل.. فهذه هي صورة أسرة رئيس مجلس إدارة خطير مستعد للخروج للمعاش بعد رحلة طويلة من العمل والعطاء، كتبتها إليك من باب التنفيس عن نفسي من جهة.. وليعلم البعض الذين يتصورون أن كل رؤساء مجالس الإدارات وكل أصحاب المناصب الخطيرة غارقون في النعيم، إنهم واهمون، فمنا المكافحون.. بل ومعظمنا من هؤلاء المكافحين الذي يواجهون المجهول بعد الخروج إلى المعاش.. هذا إذا ما نجوا خلال رحلة عملهم من المتاعب القضائية والبهدلة والتشهير.. فما رأيك؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ومن الذي قال يا سيدي إن كل أصحاب المناصب الخطيرة في بلادنا غارقون في النعيم وأنهم يواجهون المجهول بعد الخروج إلى المعاش بالثروات الطائلة والأرصدة المتراكمة؟ لا يا سيدي ليس الأمر كذلك.. ففي بلادنا شرفاء كما أن بها منحرفين، والشرفاء هم دائمًا الغالبية الصامتة المكافحة وأنا شخصيًّا أرى صورًا يقشعر لها بدني حين يجيئني بعض أصحاب المناصب الخطيرة من الشرفاء الذين يقف على أبوابهم سعاة، ويعمل بمكاتبهم سكرتيرون ولا يقابلهم أحد إلّا بعد المرور على عدة أبواب، لكي يطلبوا مني على استحياء أن يساعدهم بريد الأهرام

في الحصول على عمل إضافي بعيدًا عن مجال أعمالهم، وعن المتعاملين معهم بحكم مناصبهم الخطيرة. لكي يواجهوا عن طريقه أعباء حياتهم العائلية بطريقة كريمة تحفظ عليهم كرامة مناصبهم، وشرطهم الأول والأخير هو السرية حرصًا على كرامة المنصب.. بل وكثيرًا ما يطلب بعض هؤلاء الشرفاء تدبير أمر قيامهم بإعطاء الدروس الخاصة في بعض المواد الدراسية التي يجيدونها بحكم ثقافاتهم العالية، مع الحرص على ألَّا تعرف الأسر التي يدرسون لأبنائها حقيقة وظائفهم، اكتفاء بثقة هذه الأسر فيمن يرشحهم لها بريد الأهرام.

ولا غرابة في ذلك يا سيدي فأمثال هؤلاء المكافحين الشرفاء هم الغالبية بكل تأكيد، وشعبنا الصابر المكافح من أكثر شعوب العالم نفورًا من الحرام، رغم الظواهر والضجيج الذي تثيره بعض الوحوش الضارية التي لا تتورع عن النهب والسرقة، ومعظمهم بكل أسف من فئة «الغيلان» التي لا تحتاج إلى المال للإنفاق على الأسرة والأبناء، وإنما لشراء المساكن في أمريكا وأسبانيا وركوب التماسيح والخنازير. وهؤلاء ليسوا وجه مصر الحقيقي.. وإنما أنتم وملايين المكافحين من أجل لقمة خبز غير مغموسة في دم الآخرين وجه مصر الحقيقي وقلبها، وما ترويه عن حياتك هو صورة لا تختلف كثيرًا عن صورة حياة كثيرين غيرك من أصحاب المناصب المهمة في بلادنا.. بل لعل ظروفك أفضل قليلًا من ظروف غيرك.

ورغم ذلك فأنت مطالب بل ومضطر لأن تواصل الكفاح بعد الخروج إلى المعاش، لكي تحتفظ لأسرتك بمستواها الحالي ولكي تواصل رعايتها وأداء رسالتك تجاهها أعانك الله عليها، وهذه هي الكارثة الحقيقية في رأيي لأن الإنسان حين يصل إلى سن المعاش ينبغي أَنْ يكون له الخيار في أن يعمل أو لا يعمل ويهدأ ويستريح.. لكن ظروف حياتنا لا تدع لأحد فرصة الاختيار، فلابد من استمرار

الكفاح سواء أراد ذلك أم لم يرده.. وعلى ذلك فلا بأس من أن تلتمس العمل بعد انتهاء خدمتك، والأكرم بالطبع ألَّا تسعى إليه إلَّا بعد مغادرة منصبك.. وظني أنك سوف تفعل ذلك لأنك لم تقبل من قبل أن تفعل ما يفعله الآخرون حين يخططون لمنصب ما بعد المعاش من بداية العامين الأخيرين في مناصبهم، ولا بأس من أن يكبدوا شركاتهم وهيئاتهم العامة الخسائر الباهظة في مشروعات غير مدروسة، لكي يضمنوا لأنفسهم فيها مناصبهم الجديدة التي تبقى شاغرة حتى يصلوا إلى سن المعاش، لكنك لست من هؤلاء اللصوص بكل تأكيد ولن تكون.. ولو خيرت لاخترت لك أن تبقى كما أنت.. إذ لعلك تعرف أية مصائر آل إليها حال بعض من استحلوا المال الحرام.. وبعض من استباحوا المال العام لإنشاء مشروعات خاسرة ليضمنوا لأنفسهم فيها المناصب والرواتب العالية.. فالإضرار بالمال العام من قبيل الإضرار بالناس وزيادة صعوبة حياتهم، والإضرار بالناس جريمة لا يغفرها الله.. فمن نجا من عقاب القانون لم ينج من عقاب السماء في صحته وولده وأسرته.. ولا من عقاب المجتمع.. في تحقيره لهم وسخطه عليهم.. ويكفي أن بعضهم يهتك عرضه علنًا على صفحات الصحف فلا يجرؤ على الالتجاء إلى القضاء مطالبًا برد كرامته. إذن ماذا يساوي المال والجاه وركوب الخنازير وشقق المنتزه والعجمي والجندول وجزيرة مايوركا وزواج الأبناء في الهيلتون والشيراتون وما أشبه والإنسان مستباح الكرامة والعرض، ولا يستطيع أن ينطق بحرف دفاعًا عن نفسه وهل ينطق من في فيه ماء؟ إنني لا أقول لك هذا الكلام من باب تطييب الخاطر.. وإنما فقط لكيلا يعاودك الإحساس بالانهزام واللاجدوى والقزمية تجاه أمثال هؤلاء اللصوص، ولكيلا تفقد احترامك لنفسك ولرحلتك الطويلة في العمل.. فأنت أيضًا يا سيدي لك ثروة ضخمة هي أبناؤك وسمعتك الطيبة وكرامتك وخبرتك في العمل، ومكانتك لدى عارفيك وتلاميذك.. ولا شك أنك

سوف تجد المجال الكريم الذي تواصل فيه العطاء والكفاح لأداء رسالتك.. فلا تجزع يا سيدي من المستقبل فإن الله لا يتخلى عن أمثالك، ولو ساورتنا أحيانا بعض الظنون.. ولسوف يطرق بابك قريبًا من يطلب خبرتك وأمانتك وجهدك.. فلا تجعل لمحنة المعاش كل هذا الأثر عليك ولا تخش شيئًا.. فالخوف من المستقبل في رأيي المتواضع هو شيء شبيه بالكفر والعياذ بالله لأنه «شك» في قدرته سبحانه وتعالى على أن يحفظنا ويرعانا ويعوضنا عن جهادنا لأنفسنا ويفرج كروبنا.. فثق في الله دائما وفي المستقبل، ولسوف يحقق الله لك كل ما تصبو إليه نفسك من أمان واطمئنان على أسرتك إنه نعم المولى.. ونعم القدير.. والسلام عليك وعلى أمثالك إلى يوم الدين.

رسالة من العالم الآخر

أكتب إليك هذه الرسالة تعليقًا على رسالة قديمة نشرت في بريد الجمعة منذ فترة طويلة. كان اسمها «رسالة من خطير»، وقد دفعني عنوان الرسالة للكتابة إليك، لأنني بنت رجل أخطر بكثير من كاتب الرسالة الأولى، ولأنني أريد أن أروي لك صورة من حياتنا، وقبل أن أبدأ أرجو أن تتأكد من أني أحب أبي جدًّا جدًّا ولكن هذا شيء وما سوف أحكيه لك شيء آخر؟

أما الآن فسأقول لك إني لا أعاني أية مشكلة، فأبي مسئول كبير، وعضو بارز في المجتمع من الذين يظهرون على الشاشة الصغيرة ليحدثوا الناس من حين لآخر، وكل شيء سهل وميسور في حياتنا. فنحن نعيش في مسكن واسع فاخر ولدينا «الشغالون» الذين يقومون بالعمل، بعضهم بالأجر والبعض الآخر «متطوعا» إكراما لأبي الذي تتعيش عائلات كثيرة متمتعة ببركته ونفوذه، وكل شيء من الأشياء التموينية متوافر عندنا بكثرة خصوصًا الأشياء التي بها ندرة، وعند وجود أزمة أو حتى شائعة عن أزمة سلعة كالدقيق أو السكر مثلًا، يسارع كثيرون «بالمجاملة» وإحضار كميات كبيرة من هذه السلعة بالجوالات إلى درجة أننا والشغالون لا نعرف بالتحديد محتوى المخزون عندنا، وفي بعض الأحيان «نرمي» أو نتصرف في

أشياء لم تفتح نهائيًّا لأن الزمن طال بها عندنا، وأي مشكلة تواجهنا بسبب الروتين مثلًا، كاستخراج رخصة أو شهادة مخالفات سيارة إلخ، تحل فور رفع أبي لسماعة التليفون، وحين كنت في الثانوية العامة، كان ناظر المدرسة يستدعيني كل يوم للسؤال عن صحة أبي الغالية والاطمئنان عليها، وبالطبع معروف المقصود من ذلك، فلا مانع من طلب خدمة كتسهيل تركيب تليفون أو قرعة حج لوالد السيد الناظر. أو توصية لحل مشكلة بقسم شرطة إلخ. وعندما كنا نسافر إلى بورسعيد مثلًا لا نشتري إلَّا من تجار «معرفة» وبتوصيات وإكرام خاص. وعند الخروج من الجمرك نخرج وكأننا رؤساء دول بوداع وتحيات مجاملة لزميل أبي في محافظة بورسعيد.

وعموما فليس هناك نشاط نمارسه أو سلعة نشتريها إلَّا بتوصية أو مع جهة نعرف من فيها ويعرفوننا، حتى عندما كنا نذهب إلى السينما أيام كان الناس يفضلون الذهاب إليها، لم نكن نذهب كأشخاص عاديين يقطعون التذاكر ويدخلون، وإنما يسبقنا شخص لشراء التذاكر، فلا يقف في الطابور وإنما يطلب مقابلة مدير السينما ويطلب منه التذاكر، ثم ينتظرنا حتى نأتي ومعه المدير الذي يرحب بنا ويرسل إلينا من المرطبات والجاتوه والشاي ما يفوق ثمنه تذاكر السينما التي دفعناها، وقبل أن يدخل الغاز إلى مسكننا كنا نستعمل البوتاجاز وكان الناس يشكون من عمال البوتاجاز ومساوماتهم وبيعهم للأنابيب بجنيه وجنيهين زيادة على السعر، أما نحن فكانت عربة البوتاجاز تبدأ جولتها بالمرور علينا وتغيير 4 أنابيب بسعر 65 قرشًا للأنبوبة أي السعر الرسمي.. وما يحدث في البوتاجاز يحدث في اللحم والدجاج وغيرهما، حيث تأتي إلينا اللحوم البلدية الممتازة من الجمعيات حتى باب البيت وبالسعر الرسمي، الذي يقل إلى نصف أسعار الجزارين.. وهكذا كل شيء تقريبًا حتى ملابسنا لم نكن نشتريها إلَّا من محلات القطاع العام وبتخفيض في

الأسعار، ولا نشتري إلَّا الأشياء الممتازة التي يبحث عنها الناس فلا يجدونها لأنها نفدت بسرعة بعد نزولها للأسواق مباشرة، وهكذا عشت وتقدمت في دراستي والتحقت بإحدى الكليات الجامعية، منذ عامين أذهب إليها في السيارة الحكومية وينزل السائق ليفتح لي بابها، والنظرات الحارقة تنصب عليَّ فأتجاهلها ومع ذلك فالجميع يوهموننا بأننا لا نخطئ أبدًا، وأننا ممتازون في كل شيء. حتى أنني وأنا في المدرسة الثانوية ورغم رداءة خطي التي لابد أنك لاحظتها كنت عضوًا في جماعة تحسين الخطوط بالمدرسة، وكان المدرسون يقولون لي «الله» كلما كتبت لوحة بخطي الرديء هذا.. لكني لم أصدق ذلك كما لم أصدق أشياء كثيرة في حياتنا.. لقد تعودت فعلًا الحياة السهلة جدًّا التي نعيشها وتعودت المصروف الكبير جدًّا، ولا يشغلني ذلك وإنما يشغلني شيء آخر، هو أننا رغم أننا نعامل باحترام زائد جدًّا من كل الناس،فإننا نعيش شبه منبوذين منهم، لأن أعماق الناس لا يستطيع أحد أن يتحكم فيها، كما أن منصب أبي لابد له من يوم يتركه فيه وهو قريب، وأنا أخشى هذا اليوم لا لأننا سنفقد دخلًا أو مركزًا ولكن لأن نفوس الناس تتغير مع ترك المناصب.. فماذا تقول لي؟

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ولماذا تريدين يا آنستي أن تتحكمي في أعماق الناس؟ إنهم لم يحولوا بينكم وبين الاستمتاع بهذه الحياة السهلة اللذيذة التي يتوافر فيها كل شيء بالقنطار خصوصًا من الأشياء النادرة وبالأسعار الرسمية أيضًا.

فلماذا تريدين أن تحولي بينهم وبين حقهم الطبيعي في أن يحبوا من يشاءون ويكرهوا من يشاءون؟!

إنهم يعطونكم ما يمكن محاسبتهم عليه لو لم يقدموه.. وهو الاحترام أو مظهر الاحترام على الأصح.. أما الحب الحقيقي فلا أحد يملك إجبارهم عليه لأي إنسان مهما علا شأنه. لأنهم لا يمنحونه صافيًا خالصًا إلَّا لمن يحترم آدميتهم ولا يستفز مشاعرهم بمثل هذه السلوكيات، كما أنهم لا يقدمون حبهم واحترامهم الحقيقيْن إلَّا لمن لا يستسلم لإغراء القوة والنفوذ فتصبح كل خطوة من خطوات حياته «امتيازًا» لا يناله إلَّا أمثاله، ولمن لا ينفصل عنهم وعن مشاكلهم وحياتهم مهما علا شأنه وسما مركزه، لذلك يحب الناس البعض لأشخاصهم ومثالياتهم وأخلاقياتهم مهما كانت مناصبهم، ويكرهون البعض الآخر لأشخاصهم أيضًا ومهما كانت مراكزهم!!

إنك تخافين من تغير نفوس الناس بعد خروج أبيك من منصبه وهذا عظيم، فماذا قدمتم لمثل هذا اليوم؟ إن البعض من أصحاب المناصب لا يهمهم بقاؤهم فيها أو خروجهم منها، لأنهم يعتبرون أنفسهم أكبر من مناصبهم، ولأنهم لم يستفيدوا منها في حياتهم الشخصية، ولم يعتمدوا عليها في علاقاتهم الاجتماعية. لذلك لا تختلف صورة الحياة في أعينهم كثيرًا سواء بقوا فيها أو خرجوا منها.. أما البعض الآخر فقد تعاملوا معها بمنطق عصَّارة البرتقال والليمون التي تضغط على الثمرة لتعصر كل قطرة فيها، وهؤلاء هم من تتغير الحياة فجأة أمامهم حين يفقدون قدرتهم على النفع والإضرار للآخرين، ويتحول بعضهم إلى شخصيات مريضة غير متوائمة مع الواقع بل وإلى أشباه مجانين حين يفقد الناس قشرة الاحترام التي فرضتها عليهم مناصبهم.. لا شخصياتهم.. وبعضهم يلاحق زملاءهم الذين مازالوا في

مناصبهم بالمطالب والرجاوات والاستشفاعات كلما واجهتهم مشكلة بسيطة مما تواجه الملايين كل يوم، ويعتمدون على أنفسهم في حلها.. لأنهم لم يعتادوا التعامل مع الحياة كمواطنين عاديين.

إنك يا صديقتي تتحدثين عن الناس بلهجة خفية من اللوم والحذر، ولا تتحدثين عن أنفسكم بنفس اللهجة، بالرغم من أنك لم يغب عنك انعكاس هذه الامتيازات على الآخرين، فلم تغب عنك النظرات الحارقة التي تستقبلك وأنت تنزلين من السيارة الحكومية وسائقها الحكومي الذي تدفع الدولة راتبه يفتح لك بابها، ولو كان سائقًا خاصًا لما استلفت ذلك أنظار أحد، ولم يغب عنك أنكم رغم الاحترام «الزائد» تعيشون شبه منبوذين، لأنه لا أحد يتحكم في أعماق الناس.. كما تقولين، ولأن العلاقات الإنسانية ليست فيما يبدو سليمة وسوية بينكم وبين الآخرين، ويبدو أنها قائمة على الخوف لا الحب. وأنا لا ألومك أنت شخصيًّا لأنك لست المسئولة عن كل ذلك، وإنما ألوم الأوضاع التي تسمح لبعض الأشخاص بألَّا يعرفوا من الحياة سوى هذه الصورة الوردية التي تبدو للكثيرين غريبة تمامًا، وأنصحك بألَّا تفقدي صدقك مع نفسك، وبأن تنظري للأمر كله كتمثيلية رديئة سوف تنتهي سريعًا، وأن تتعودي على الحياة العادية والمصروف العادي لأن النعم لاتدوم كما تعرفين.. ولأن البساطة خير وأبقى، وتفعلين كما يفعل البعض الذين يستفزون الناس بسلوكياتهم وهم في أوج قدرتهم، فإذا تغيرت الحال ولولوا وبكوا ونعوا على الناس انعدام الوفاء.. لأنهم لم يعودوا يرون فيهم الممتازين الذين لا يخطئون أبدًا.. وفقدوا قشرة الاحترام الزائفة لهم.. وتوقفوا عن أن ينظموا الأهازيج في حبهم والتغني بأفضالهم.

مع أن الخطأ هنا ليس خطأ الناس بقدر ما هو خطأ من اعتادوا التميز والترفع والسيادة، وتلقي احترام الناس دون أن يكلفوا أنفسهم عناء محبتهم واحترامهم ومشاركتهم ولو شعوريًّا حياتهم الصعبة.. فلا تكوني من هؤلاء لأن الدنيا مستديرة يا أنستي.. ولا تستقر على حال، ولأنه لا يبقى للمرء في النهاية سوى ما قدم للحياة من خير وما أخلص من الود للآخرين وما أخلصه له الآخرون منه.

الزوبعة

سيدي أكتب إليك من الجحيم.. وإن لم تصدقني تفضل بزيارتي في بيتي والمس بنفسك ما أعانيه.. فأنا يا سيدي مهندس شاب عمري 36 سنة، تزوجت من 5 سنوات من طبيبة تعرفت عليها في وسطي العائلي ووجدت فيها ما أريده.. جميلة.. مثقفة.. أنيقة.. ذات شخصية. فتقاربنا وتحاببنا لمدة شهور وتقدمت لخطبتها.. وكان تخطيطي أن تستمر الخطبة لمدة عام لكي نستكمل تعارفنا، لكني فوجئت بأم خطيبتي تصر على عقد القران خلال شهر واحد من الخطوبة وإلَّا فسختها.. فحاولت أن أشرح لها أسبابي، فلم تتراجع بل أمرت خطيبتي بألَّا تلتقي بي حتى يتم القران.. وأن نكتفي بالاتصال التليفوني من حين إلى آخر. وحين شرحت لها أني لست جاهزًا للقران الآن، وأني أريد فترة الخطوبة لكي يعرف كل منا الآخر تمامًا، قالت لي إننا نستطيع عقد القران دون زفاف ودون حفل أو تكاليف، وأن نعتبر الفترة التي تسبق الزفاف هي فترة الخطوبة، ولأن حبها كان قد تمكن مني في ذلك الوقت فقد وافقت.. ولم ألتفت حين عقدنا القران إلى أن الأم مرة أخرى أصرت على أن يكون مؤخر الصداق مبلغًا كبيرًا لا يتناسب مع إمكاناتي أو وسطي الاجتماعي، وحين لفت نظرها إلى ذلك قالت لي إنها مجرد شكليات للمحافظة على

مظهر الأسرة خصوصًا أن مقدم الصداق المكتوب هو جنيه واحد، فلم أتمسك وتم عقد القران واحتفلنا به ليلتها بالخروج معًا في الليل لأول مرة وبدأت الحياة تبدو جميلة أمامنا.. ووفقني الله إلى العمل في دولة عربية فسافرت بعد عقد القران بشهرين.. واستقررت في عملي وأثثت شقة مناسبة وأرسلت إلى زوجتي استدعيها فلحقت بي وغرقنا معا في السعادة والهناء.. إلى أن بدأت تطالبني بأن أجد لها عملًا في الدولة التي نقيم فيها.. فلما ناقشتها في صعوبة ذلك في بداية الأمر بدأتُ لأول مرة أرى فيها شخصية جديدة لم أرها من قبل، فكلما عدت من الخارج تسألني ماذا تم في تعيينها، فأقول لها لم ينته بعد فتبدأ بالصياح والردح وسكب الطعام على الأرض.. وتتهمني بأني عاجز وأني لست رجلًا إلخ هذه الألفاظ التي صعقت حين سمعتها.

وظلت لمدة شهرين تستقبلني كل يوم بهذا الموشح.. وتحيل حياتي إلى جحيم إلى أن اضطرتني إلى دفع رشوة كبيرة لتعيينها، وعينت بالفعل واستراحت.. وظننت أني أيضًا قد استرحت.. لكني كنت واهمًا، فبعد أن كانت المشاكل تحدث في البيت فقط، أصبحت تحدث في البيت وفي العمل.. فهي سليطة اللسان جدًّا ولا تخاف أحدًا، وفي كل يوم لها مشاجرة مع العاملين معها في العمل ومع المرضى الذين تتعامل معهم، وفي كل يوم يزورني واحد منهم ليشكو إليَّ زوجتي فاعتذر له وأطيب خاطره، حتى أصبح لا يمر يوم بغير أن اعتذر فيه لأحد أو لا أقبِّل فيه رأس أحد.

وهي لا تتورع عن أي شيء.. وإذا انفجر غضبها فلا حدود لها، وتسب حكومة البلد الذي نعمل فيه علنًا وأمام مواطنيه، وكم من مرة كادوا يقدمون فيها الشكاوى للحكومة فأجري وراءهم وأعتذر وأقبل الرؤوس، لأن تقديم

الشكوى يعني ترحيلها وبهدلتها، وفي كل مرة يشفق عليَّ الرجال الذين اعتذر لهم فيتراجعون في اللحظة الأخيرة.. لكن لا يمنع ذلك من أن يسمعني بعضهم كلمات قارصة عن ضرورة تأديب زوجتي إلخ.

وهكذا عشت في هذا البلد عامين لم أنم فيهما ليلة واحدة إلَّا وأنا خائف من أن تطرق الشرطة علينا الباب لترحيل زوجتي أو لاستدعائها للتحقيق.

ووصل الأمر إلى قمته حين انفجرت براكينها مرة على موظف كبير من العاملين معها فأصر على أن يشكوها، وأسرع زملاؤها إليَّ في مقر عملي.. فأسرعت معهم إلى الموظف الكبير أعتذر وأتأسف.. حتى لقد بكيت والله العظيم أمامه من القهر والخجل، فلم يتزحزح عن موقفه حتى خرجت من عنده وأنا لا أرى الدنيا.. وفي قمة همي فكرت بسرعة فيما سيحدث حين تستدعيها الشرطة.. ماسوف يترتب على ذلك من فضائح وبهدلة بل وجلدها أيضًا إذا أثبت التحقيق خطأها، فهداني تفكيري إلى أن أنطلق بأقصى سرعة إلى البيت وأجمع ملابسها وأنا أسابق الزمن في حقيبة، ثم سحبتها من يدها إلى المطار مباشرة واختبأنا فيه إلى أن جاء موعد أول طائرة وودعتها لتركبها وتعود إلى القاهرة، وعدت أنا إلى البيت فوجدت استدعاء من الشرطة وواجهت متاعب كثيرة وعذابًا لا يطاق إلى أن تمت تسوية المشكلة، وبعد أن هدأت العاصفة استدعيتها مرة أخرى فجاءت.. وواصلنا حياتنا بعد أن ألزمتها بعدم العمل تجنبًا للمشاكل إلى أن نعود لمصر فهل استرحت؟؟ أبدا والله.. ففي كل يوم مشكلة مع الجيران.. ومع البواب ومع الباعة في السوق.. وإذا خرجنا نتسوق معًا ونظر إليها أي عابر سبيل مجرد نظرة لفتت نظري بشدة إلى أن هذا الشخص ينظر إليها.. وسألتني ماذا سأفعل معه.. فإذا ترددت في الإجابة لم تنتظرني وإنما اندفعت لتكيل السباب لعابر سبيل ويتجمع الناس.. وتأتي الشرطة وتكون فضيحة بجلاجل، حتى أصبحنا معروفين لدى الشرطة بكثرة المشاكل.

ستسألني بالطبع لماذا تحملت كل ذلك؟ فأقول لك: إننا أنجبنا بعد عام واحد من الزواج طفلًا صغيرًا قاسمني العذاب من يوم ولادته، فكانت تضيق ببكائه وهو مولود صغير وتصفعه بالقلم لكي يسكت، بل وكانت والله العظيم تعضه إذا بكى في الليل وأيقظها من النوم وتلعن سنسفيل جدوده لكي يسكت.

وبعد أن دفعتني ذات مرة دفعًا للتضارب مع شخص اتهمته بأنه ينظر لها نظرات وقحة في محل عام.. عدت إلى البيت حزينًا مهمومًا، وأمضيت الليل ساهرًا.. ووجدت أني لو استمررت في عملي في هذا البلد أكثر من ذلك فسوف يكون مصيري ومصيرها السجن، فخرجت في الصباح إلى مقر عملي وقدمت استقالتي وانهيت إجراءاتي دون إخبارها، وخلال أيام قليلة كنت قد أنهيت كل شيء وحجزت التذاكر فعدت إليها وأخبرتها بأننا سنسافر في الصباح، وأجارك الله فيما حدث يا سيدي حينذاك، يكفي أن أقول لك إنها ظلت تصرخ وتولول وتقفز إلى أعلى وتهبط إلى أسفل، وتلقي بالولد على الأرض وتفتح النوافذ وتصيح.. ثم تعود لتسب الأقدمين والأولين، وترجع إلى النافذة مرة أخرى حتى أفرغت كل طاقتها وأنا صامت ساكت مستسلم لقدري، ثم بدأت تحزم الحقائب وهي تتهمني بأنني دبرت كل ذلك لكي لا أتيح لها فرصة شراء الهدايا!!

ثم حملتنا الطائرة إلى بلادنا.. وعدنا إلى حياتنا فعدت إلى عملي وعادت إلى عملها.. وبدأت آمل في أن تهدأ العواصف والبراكين.. ولكن هيهات، فما كان يحدث هناك أصبح يحدث هنا، وأصبح نصف وقتي ضائعًا في استقبال زملائها بالمستشفى الذين يشكون منها.. وفي الذهاب إلى القسم للإدلاء بأقوالي في محاضر تَعَدٍّ على الجيران لأسباب تافهة!!

كان آخرها أن الجيران الذين يسكنون فوقنا لا يعصرون غسيلهم جيِّدًا وينشرونه مبللًا فتتساقط قطرات الماء منه فوق غسيلنا، فماذا فعلت زوجتي؟ جاءت برأس العبد الطويلة التي تستخدمها في التنفيض، ودفعت بها غسيل الجيران المبلل فأعادته إلى داخل شرفة الجيران بحيث تتساقط قطراته في داخل الشرفة وطبعًا اتسخ الغسيل، وكانت مشاجرة ومعركة، ومحضرًا في قسم البوليس وتعال يا باشمهندس شوف مراتك عملت إيه؟ فلما سألتها لماذا فعلت ذلك قالت بحزم لقد حذرتهم مرة قبل ذلك لكنهم عادوا للخطأ.. ولارد على الخطأ إلَّا بالخطأ!

إنني أكتب إليك هذه الرسالة بعد أن عدت من قسم الشرطة الذي سهرنا فيه حتى منتصف الليل ومعنا الطفل الصغير، وقد نامت ملء عيونها بعد المعركة الظافرة، وبقيت أنا ساهرًا أندب حظي، وكلما اقتربت المشكلة من الشرطة والعقاب ارتجفت وطالبتني بالتدخل.. لإنقاذها واتهمتني بالتخلي عنها.. فإذا انتهت المشكلة استأسدت من جديد. وراحت تتشاجر مع طوب الأرض وكل أسبوع لنا مشكلة جديدة.. وقد تفاقمت إحدى هذه المشاكل حتى وصلت إلى محكمة الجنح.. فقد رفع عليها محاسب احتكت به في عملها دعوى جنحة مباشرة، وفشلت كل المحاولات للاعتذار له.. هل تعرف لماذا؟ لأنها سبته علنًا أمام آخرين ورفعت يدها محاولة صفعه! لولا أن أمسكت بها زميلاتها في المستشفى.. فأصر الرجل على رفع جنحة مباشرة وشهد معه آخرون.. وكل عدة أسابيع يأتي المحضر ليسلمني إعلان الجلسة بفضيحة في الحي ونذهب للمحامي.. ونذهب لقاعة المحكمة وكلما رأيت المحاسب وحاولت الاقتراب منه متوددًا لوى وجهه بعيدًا عني وقال لي: يا باشمهندس أنا مفيش بيني وبينك حاجة لكن مراتك لازم تتربى!!

وهكذا أعيش يا سيدي.. وكلما فكرت في حل لمشكلتي وقف أمامي ابني المعذب مثلي الذي لا أريد أن يتمزق بيني وبينها، ومؤخر الصداق الضخم الذي فرضته حماتي الداهية، والذي عرفت فيما بعد لماذا تمسكت به ولماذا تمسكت بعقد القران على وجه السرعة، لأن إطالة مدة الخطوبة كانت من المحتم أن تؤدي إلى فسخها كما فسخت لها خطوبتان قبلي لم أكن أعلم بهما.. فهل عندك حل لمشكلتي يا سيدي؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة العجيبة أقول:

عندي حل؟! إن حل مشكلتك لا يمكن أن يكون عندي بل عند طبيب الأعصاب أو الطبيب العقلي أو في المصحة المتخصصة، إنها حالة عصبية وعقلية شديدة أعانك الله عليها وعلى ما لقيته معها.. فأنت لا تعاشر زوجة تسكن إليها طلبًا للراحة وإنما زوبعة تجرف أمامها كل شيء، وتحيله إلى غبار هائج وشرر مستطير.. إنك لم تتزوج يا صديقي وإنما وقعت في فخ مع نَمِرَة شرسة تخمش بمخالبها كل من يقترب منها.. فماذا فعلت بنفسك.. وكيف غابت عن فطنتك معالم شخصية هذه الزوجة البركانية قبل الزواج؟ من المؤكد أنها بذلت مجهودًا جبارًا لكي تخفي عنك شخصيتها الحقيقية، وأسهمت العجلة في الزواج والإسراع بالإنجاب في إحكام الحلقة حولك. ولا أريد أن أزيد من متاعبك بلومي لك على تفريطك في حق نفسك معها من البداية، ولا على تحولك إلى «مجبِّر» للكسور التي تصنعها في كل مكان.. ومقبلٍ للرؤوس يعتذر عن خطأ غيره ويتذلل للآخرين طلبا للصفح والغفران.

لا أريد أن ألومك لأن وقت اللوم قد فات، لكني أقول لك فقط إن نمط هذه الشخصية العدوانية لم يكن يجدي معه الصمت والتسامح والتراجع أمامه باستمرار، لأن ذلك يغريها بالتمادي في الخطأ.. وفي العدوان على الآخرين.. ومثل هذه الشخصية لم يكن يجدي معها سوى الردع منذ اللحظة الأولى وشكمها عند أول فضيحة لترتد إلى حدودها الطبيعية، لكنك لم تفعل يا سيدي وكنت صبورًا وحليمًا ومتسامحًا على الدوام.. وبذلك انتقل الردع من يدك إلى أيدي الآخرين، وأصبحت هي كلما واجهت مشكلة معهم انكمشت خائفة تنتظر منك التدخل لإنقاذها.. ثم تهدأ العاصفة وتعود لتزرع الشوك من جديد في حياتك.

إن شريكة سوء مثل هذه النمرة الشرسة لن يجدي معها سوى أن تنزل الدنيا بمطارقها فوق رأسها فتفيقها من أوهامها ومن غطرستها، ولعل أفضل ما تفعله معها لو كنت مازلت راغبًا في الاستمرار معها، هو أن تسحبها من يدها بالقوة إلى أقرب مصحة عصبية وتخضعها لعلاج طبي طويل يهدئ من براكين ثورتها، وأظنها وهي طبيبة تعرف جيِّدا أنها في حاجة إلى العلاج النفسي والعصبي، وربما العقلي أيضًا، لكنها ترفض التسليم بذلك غطرسة وكبرياء، فإذا كنت لم تفقد صبرك بعد عليها.. فافعل ذلك وتمسك به وضع حياتك معها في كفة وخضوعها للعلاج الطبي في كفة أخرى، فإن رفضت، فإن الوحدة هي الجزاء العدل لكل فظ غليظ الطبع لا يؤدي للآخرين حقوقهم من الاحترام وحسن المعاشرة، أُمَّاً طفلك فهو ضحية في كل الأحوال سواء صبرت عليها أو انفصلت عنها، لأن أما مثلها تعض وليدها وتسب جدوده لكي يهدأ، لن توفر له بكل أسف الظروف الطبيعية لإسعاده، سواء عشت معها أم انفصلت عنها.

وفي مثل هذه الحالة لا يصبح هناك أمل في الإصلاح، وتغير الطباع ولو نسبيًّا إلَّا إذا لقنتها الحياة درسًا قاسيًا يعيد إليها توازنها، إن هناك تعريفات عديدة للإنسان

لكن أقربها إلى الصحة هو أنه حيوان له تاريخ.. لأن له ذاكرة يسترجع بها تجارب حياته السابقة، ويستفيد منها.. ويتجنب أخطاءها.. وزوجتك يا صديقي لاذاكرة لها ولا تاريخ.. ولا تتعلم من تجاربها.. ولا تستفيد من أخطائها وإنها تكررها بنفس الطريقة وبنفس التفاصيل.. لذلك تحولت حياتك معها إلى فصول متواصلة من العذاب.

إنني لا أفضل أبدًا أن أنصح زوجًا بالانفصال عن زوجته مهما كانت متاعبه معها، مادام هناك طفل سوف يتشرد بينهما، لكن هناك حالات نادرة يصبح بتر عضو من الجسم ضروريًّا لكي يصح باقي الجسد.. وأظن أنك تواجه حالة من هذا النوع بكل أسف.. فاحزم أمرك يا صديقي واخضعها للعلاج المنظم، فإن رفضت فإن مال الدنيا كله يهون في سبيل النجاة بنفسك وبطفلك من مثل هذه الزوبعة الهوجاء!!

قبل الشروق

صديقي.. أرجو أن تسمح لي أولًا بأن أدعوك بصديقي رغم أنني لا أعرفك، لأنه سبق أن أَرْسَلْتُ إليك منذ عدة شهور رسالة عن مشكلتي أطلب رأيك فيها، وقرأت ردك المختصر عليها في ردود خاصة، ونفذت ما أشرت علي به، وعاهدت نفسي أنه لو تحقق أملي أن أكتب لك عن تطورات قصتي لعلها تنفع غيري من الشباب.

أما قصتي فهي أني كيميائي شاب عمري 29 سنة جئت إلى القاهرة منذ 11 سنة لألتحق بالجامعة. فنزلت إلى العاصمة الكبيرة لأول مرة في حياتي من مدينتي الصغيرة جدًّا في الصعيد، وسكنت في شقة من غرفتين وصالة في حي بين السرايات القريب من الجامعة، وانتظمت حياتي بين الكلية وبين المسكن الصغير وكان أبي يزورني في القاهرة كل شهرين أو ثلاثة شهور فيمضي معي عدة ليال.

وكانت وصاياه المستمرة لي هي أن أرعى الله في غربتي.. وكنت حقًّا وصدقًّا ملتزمًا بذلك بأمانة.. وحافظت على استقامتي هذه طوال سنوات الدراسة حتى تخرجت في الكلية، ووفقني الله في الحصول على عمل في القاهرة، وخلال السنة الأخيرة من دراستي كانت استقامتي وطول العشرة قد خلقا بيني وبين جار لي

في البيت الذي أقيم فيه. نوعًا من الألفة والاحترام المتبادل.. فأصبحنا يحيى كل منا الآخر إذا التقينا على السلم، بعد أن ظل يتجنبني 3 سنوات نفورًا مني لأني طالب أعزب، ثم شيئًا فشيئًا خلقت هذه العشرة نوعًا من الألفة مع ابنيه الطالبين بالمدرسة الإعدادية، ثم شيئًا فشيئًا بيني وبين ابنته الوحيدة الطالبة بكلية التجارة.. حتى أصبحنا نتبادل التحية على السلم.. ثم بعد فترة من الشرفة.. ثم لم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أشعر بحب عظيم لها.. وهي تبادلني نفس الشعور، فتعاهدنا بعد فترة على أن أتقدم لخطبتها فور تخرجي.

ولأن أبي رغم شدته وتحفظه قد رباني على مصارحته بكل شيء لأنه رجل متنور ومتعلم درس في صغره بالأزهر، لأنه كذلك، فلقد فكرت أن أصارحه بالأمر كله. لكني ما إن اقتربت من الموضوع حتى فاجأني بأنه غير موافق بالمرة على زواجي من قاهرية لا نعرفها ولا تعرفنا، وأنه قبل مضطرًا أن أعمل في القاهرة لصعوبة العثور على عمل في بلدتنا أو قريبًا منها، لكنه لن يقبل أن أتزوج بقاهرية تقطع ما تبقى من روابط بيني وبين بلدتي، وأنه يفضل لي أن أتزوج من إحدى قريباتي ليكون هناك دافع قوي يربطني إلى نهاية العمر ببلدتي وأسرتي.

فسكت مرغمًا، وقررت أن أترك الأمر للزمن، واستمرت علاقتي الشريفة بفتاتي.. ورأيت من الأمانة ألَّا تستمر في الخفاء أكثر من هذا.. فزرت أباها وصارحته بكل شيء.. وعرفته أن أبي عنيد لكنه متنور.. وأنه إذا تزوجت رغمًا عنه فقد لا يمنعني بالقوة، لكنه سوف يرفع يده عني ولا يساعدني في الزواج.. وسيتألم ألمًا نفسيًّا كبيرًا لأنه لا يتصور أن أخالفه وأنا وحيده الذي يحبه حبًّا جمًّا.. فقال لي الأب إنه يرى فيَّ إنسانًا مستقيمًا.. وزوجًا كريمًا لابنته لكنه لا يقبل على كرامته أن أتقدم إلى ابنته بغير موافقة أبي وأسرتي، ونصحني بأن أحاول معه من جديد.

ومضت شهور وبدأت فتاتي تقلق خصوصًا بعد أن ظهر في الأفق خطيب جديد من الأسرة، وطالبتني بالتحرك قبل أن يضيع الأمل، وسافرت إلى بلدتي، ورويت القصة لأمي وطلبت مساعدتها في إقناع أبي، فرفض بإصرار، فاستعنت بعمي وهو شقيق أبي الأصغر.. وهو شريكه في الأرض المحدودة، ففشل في إقناعه، وعدت للقاهرة بالخيبة. ورأتني فتاتي عائدًا محطمًا وحزينًا فعرفت النتيجة؛ لكنها لم تتخل عنِّي ورفضت الخطيب الآخر بإصرار.. وغضب منها أبوها وخاصمها وقال لها إنها تحلم بالمستحيل لأن أبي لن يغير موقفه، أما أمها فكانت متعاطفة معها.

ورحت أكتب الرسائل إلى أبي أناشده فيها أن يعفيني من الإحساس بالذنب تجاهه، لأني متمسك بالزواج من فتاتي فرد علي بالرفض من جديد.. فسافرت إلى البلدة بعد شهرين وقابلت أخوالي الثلاثة.. وطلبت وساطتهم مع أبي.. فحدثوه جميعًا.. فلم يلن.. وعدت مرة أخرى بالخيبة.

وفي هذه الفترة جاء أبي إلى القاهرة ليؤدي العمرة، وذهبت أودعه في المطار وهو محرم، وقبل أن يدخل أسوار الجمرك قلت له وأنا أقبل يده «حلفتك بمن ستضع يدك على شباكه» ألَّا تظلمني وأنا ابنك الوحيد.. فنظر إلى صامتًا ثم وضع يده على رأسي وقال لي.. «ربنا يعمل ما فيه الخير» ثم سافر.

وخلال غيابه خطرت لي فكرة اعتبرتها وقتها جنونية بالنسبة لظروفي، وهي أنه حتى هذه اللحظة لم ير فتاتي وأنه لعله يظنها «خواجاية» أو متبرجة، ولا يعرف أنها فتاة محافظة من أسرة كريمة متدينة تحترم الأب كما نحترمه نحن.. وتصلي وتصوم مثلنا، فماذا لو قدمتها إليه ليراها على الطبيعة.. أليس من المحتمل أن يغير رأيه؟!!

ونفذت الفكرة وحين عاد من العمرة وجدني في انتظاره، وإلى جواري فتاة مظهرها محترم جدًّا شبه محجبة، وإلى جوارها شقيقها الأصغر فسلَّمتُ عليه وقبلتُ

يده، وتقدمتْ هي منه بعدي وسلمتْ عليه باحترام وهنأته بالسلامة، فرد عليها بذوق وأدب وصافحه شقيقها، وركبنا سيارة الأجرة إلى مسكني وهو صامت هادئ لا يعبر وجهه عن رفض أو قبول، وعند البيت انصرفت فتاتي وشقيقها إلى مسكنها، وصعدت معه إلى مسكني فلم يسألني عن شيء، وأمضى الليلة معي في حديث ودي، وكلما حاولت أن استدرجه للحديث عن الخطبة أو فتاتي، سكت ثم حول الحديث وجهة أخرى، وفي الصباح عاد إلى البلدة.. وانتظرت أن يرسل إليَّ بموافقته فلم يفعل، فكتبت إليه من جديد.. فلم يرد.. فكدت أجن، ماذا أفعل يا ربي؟! إنني لم أرتكب جُرْمًا ودخلت البيوت من أبوابها، وقد مضى أكثر من عام وأنا أسترضيه وأطلب موافقته بلا جدوى ولا سلطان على قلبي.. فماذا أفعل لكي أحقق سعادتي وأنال رضا أبي ورضا ربي في نفس الوقت؟

في هذه الأيام بلغت أزمتي قمتها ويئست من كل شيء، فقلت لفتاتي حين تقدم لها خاطب آخر.. لا فائدة.. ابحثي عن مستقبلك.. لن يقبلني أبوك بغير أبي وأسرتي، ولن يقبل أبي بك وبأسرتك، فانهارت وبكت وقالت لي أبعد كل هذا العذاب والانتظار نضحي بكل شيء؟ ورفضت، وطالبتني بألَّا أيأس، وأشهد لها أمام الله أنها في كل هذه المراحل لم تطلب منِّي أبدًا أن أخرج عن طاعة أبي، وإنما طالبتني بأن أحاول، وفي هذه الفترة كتبت إليك بقصتي وسألتك النصح والمشورة، فقلت لي إنك ضد أن يتزوج الابن أو الابنة على غير رغبة الأب والأم، لأن موقف الأسرة الرافض يؤثر سلبًا فيما بعد بالفعل على الزواج، إذا تم رغما عنهما ولأن الإنسان لا يعيش مع زوجته وحدهما في غابة وإنما مع بشر هم أقاربهم، وأنك لا تسوغ لنفسك أن تنصح شابًا أو فتاة بالزواج على غير رغبة الأب أو الأسرة إلَّا في حالات نادرة، يكون تعنت الأب فيها صارخًا وليس له ما يبرره من

عقل أو دين أو خلق، وأنك رغم أنك ترى أن حالتي هذه من الحالات الصارخة التي تسمح لنفسك فيها بأن توافقني على الزواج بغير موافقة الأب، حرصًا على هذه الفتاة التي ارتبطت بك أكثر من ثلاث سنوات، فإنك رغم كل ذلك تطالبني بأن أحاول مرة أخرى وثانية وثالثة إلى أن يطمئن ضميرك تمامًا إلى أنك قد أرضيت ربك في محاولة استرضاء أبيك ونوال موافقته، فإذا رفض بعد كل ذلك. فتزوج والله مطَّلع على القلوب.

هذا ما قلته لي.. وهذا ما نفذته رغم كل ما عانيت، فزرته مرة أخرى وقلت له كل هذا الكلام وبكيت وأنا أطلب مباركته لزواجي لكيلا أتزوج وأنا أعاني الشعور بالذنب نحوه، فلاحظت أنه يغالب مشاعره.. وأن عينيه تدمعان وهو يعلنني للمرة الأخيرة بأنه غير موافق!

كان قد مضى على تعييني ثلاثة أعوام، وكنت قد ادخرت مبلغًا صغيرًا وكانت فتاتي قد بدأ صبرها ينفد، فاستجمعت إرادتي وذهبت إلى أبيها، وقلت له إنني أرجوك ألَّا تكون أنت والدنيا ضدِّي.. فأنا أريد ابنتك وليس ذنبي أن أبي يرفض الموافقة بعد أن فعلت معه المستحيل، ولقد حافظت عليها أمام الله أكثر من ثلاث سنوات فماذا تريدون منِّي أن أفعل أكثر من ذلك ولماذا تتركوننا للضياع، ولماذا تحكمون على كل منا بأن يتزوج ممن لا يحبه؟

ففكر الأب طويلًا ثم قال لي: لا أستطيع أن أرفض أكثر من ذلك، وقرأنا الفاتحة، وحددنا موعدًا لعقد القران، وكتبت لأبي رسالة طويلة أشرح له الأمر وأطلب عفوه ورضاه عني.. وأعلن له موعد القران.

فلم يرد عليَّ.

فأرسلت إليه خطابًا ثانيًا فلم يرد أيضًا عليَّ. فكتبت إلى عمي وأخوالي وأزواج شقيقاتي الثلاث أطلب منهم مساعدتي.. وأقول لهم إني لن «أزعل» إذا لم يجيئوا لأني أدرك الموقف.. فكلموه فلم يتزحزح عن موقفه.

واقترب الموعد.. فأرسلت إليه تلغرافًا.. فلم يرد علي فبكيت من القهر.. وقمت للصلاة فصليت ودعوت الله أن يغفر لي ولأبي إن كنت مخطئًا.. ورتبت نفسي على أني سأكون عريسًا وحيدًا بلا أهل في عقد القران.. وبدأت أستعد له.. وقال لي صهري إنه يعرف ظروفي وأنه لن يطلب منِّي أي شيء فشكرته على هذا الموقف، واشتريت بكل ما معي شبكة متواضعة جدًّا لا تليق بخطيبتي، لكن ماذا أفعل؟ وخلال اليومين السابقين للقران التف حولي أصدقائي الوحيدون من أيام الدراسة وهم أصدقاء رجال وأوفياء.. وفيهم نخوة وشهامة.. وكانوا يعرفون قصتي ويشدون أزري ويساعدونني، فراحوا يتولون أمور القران.. وبغير أن أطلب من أحد شيئًا.. جاءني كل منهم بما معه من نقود لاستعد بها على طلبات القران وانفقنا كل ما معنا، وأبقينا أجر المأذون على جنب.. ثم اكتشف أحدنا وكان قد زوج شقيقته منذ فترة، أنه لابد لكل قران من علب توزع على «المعازيم» وأنها من مسئولية العريس واحترنا ماذا نفعل.. وراح كل منا يخرج ما في جيبه فلم يزد ما جمعناه على 40 جنيهًا، واحترت. وشعرت بالعجز.. وأفلتت مني مشاعري فسقطت دمعة من عيني.. ليس حزنًا على حالي، وإنما على حال خطيبتي التي يعجز خطيبها عن شراء علب الملبس. فهزني أحد هؤلاء الأصدقاء وقال لي «ولا يهمك» ساعة واحدة وحيكون عندك علب الفرح. وخرج يجري ليركب سيارته الفولكس الصغيرة القديمة، ثم عاد بعد 3 ساعات ومعه 100 علبة من حلواني بالعتبة، علمت فيما بعد أنه باع ساعته الثمينة وولاعته الذهبية، وخاتمه لصائغ في شارع الصاغة بنصف الثمن ثم اشترى العلب وعاد إلى بين السرايات جريًا.

في نفس اللحظة كان صديق آخر قد جاءني ببدلته الجديدة، لأني لم أستطع شراء بدلة مناسبة في هذه الظروف.. فارتديتها وبدأت أحاول الابتسام من جديد.

وجلسوا جميعًا حولي يضحكون ويهللون وأنا أضحك معهم أحيانًا.. وأسرح أحيانًا أخرى، أتخيل حال أمي وحزنها عليَّ، وحال أبي وغضبه منِّي فتموت الفرحة في قلبي، وكل فترة يدق الباب فنفتح لنجد أحدًا من طرف بيت العروسة يطلب شيئًا أو يبلغنا بشيء.. أو يذكرنا بمن سيذهب لإحضار المأذون.. واقترب الوقت من الرابعة وبدأ أصدقائي الخمسة يستعدون للنهوض لكي نخرج معا لنذهب إلى شقة العروسة، حين دق الباب وكنت قريبًا منه ففتحته، فإذا بي أرى وجها لم أتبين ملامحه في البداية من شدة انفعالي.. ثم بدأت أفيق وأرى أمامي.. يا إلهي إنه أبي، أبي بعينه.. وليس غاضبًا.. بل يبتسم.. يبتسم بخجل كعادته حين يكون محرجًا، وإلى جانبه عمي.. وأزواج شقيقاتي.. ثم أمي.. ثم شقيقاتي.. ثم أخوالي الأربعة، ثم 4 من أبناء عمي.. ثم.. ثم لم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أحتضن أبي وأقبل رأسه ويده وكتفه.. وانحنيت دون وعي لأقبل قدمه.. فرفعني قبل أن أصل إليها وقبلني وتلفُت حولي فإذا أنا وسط مندبة لافرح فالجميع يبكون، أمي تبكي وشقيقاتي وأخوالي وأصدقائي، وأنا وأبي يمسح دمعته بكف يده، وهو يتظاهر بالمرح ثم أراد أن يتخلص من الموقف فقال تأخرنا على الفرح هيا بنا، ثم خرج من الشقة ونحن وراءه إلى شقة صهري، ولا تتصور ما حدث حين رأوا وعلموا أن أبي قد صفح عنّي، ولا فرحة خطيبتي وأمها وأبيها وإخوتها بأبي وأمي وشقيقاتي وأهلي، لقد انقلب الفرح الصامت إلى فرح حقيقي ولعلعت الزغاريد من القلب هذه المرة.

وحين جاء المأذون تقدم أبي ووضع يده في يد صهري، وهو سعيد ودمعت عيناه وهو يقرأ صيغة العقد، وهو يقرأ الفاتحة، أما أنا فلم تجف دمعتي طوال هذه اللحظات رغم سعادتي وابتسامتي العريضة وحين جاءت لي حماتي بالشبكة الفقيرة

لكي ألبسها لزوجتي نحاها أبي بيده جانبًا وأشار إلى عمي فأعطاه علبة بها شبكة عظيمة فقدمها لي بفخر وقال لي: لبِّس عروستك شبكتها ياولد، فكانت أحلى كلمة ولد سمعتها منه طوال عمري، رغم أنه كثيرًا ما قالها لي وأقسمت أمام الجميع أني لن آخذها إلَّا إذا سمح لي بتقبيل يده أولًا.

وكانت ليلة من ليالي العمر.

وبعد القران عدنا إلى شقتي الصغيرة وسهرنا حتى وقت متأخر، وعرف أبي ما فعله معي أصدقائي وما فعله صهري، فازداد لهم إكبارًا، وسدَّ عني في اليوم التالي كل ما اقترضته من أصدقائي، وذهب إلى الصائغ الذي باع له صديقي ساعته وخاتمه وولاعته واستردها منه جميعًا، ودفع له فيها فوق ما دفع وما أراده، وأعادها لصديقي، ودفع لي مهرًا معقولًا، رغم محاولة صهري الرفض أكثر من مرة، وأمرني ببياض الشقة ودفع التكاليف، وحدد مع صهري موعد الزفاف في أبريل القادم. وأمضى معي يومين في القاهرة.. كانا من أجمل أيام العمر، ثم عاد مصحوبًا بالسلامة مع أسرتي إلى البلدة صباح اليوم الثالث.

ولقد مر على عقد قراني شهر، وأنا سعيد وعروستي سعيدة، وقررت أن تشاركنا سعادتنا بأن أروي لك ما حدث لكي أقول لكل من يواجهون هذا الموقف إنه لولا أنيَّ أرضيت ربي وضميري في استرضاء أبي طوال حوالي ثلاث سنوات، ولولا أن زوجتي فتاة طيبة ومتدينة ومن أسرة كريمة، لما سمحت لنفسي أبدًا بالخروج على إرادة أبي. لأن طاعة الأب العادل العطوف من طاعة الرب، لكن القلب له أحكام ولقد نصرني الله لأني أخصلت الطاعة له وأخصلت النية في استرضاء أبي. فكان ما كان والحمد لله على ما كان وعلى ما سيجيء والسلام عليكم ورحمة الله.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حقًّا يا صديقي الحمد لله على ما كان وما سيكون بأمر الله.. لقد فاجأتني رسالتك وأبهجتني كثيرًا بعد أن سمحت لي الظروف بأن أعرف فصولها الأولى. والحق أقول لك إنني لم أتصور أنها سوف تنتهي هذه النهاية الرائعة، لما لمسته من صلابة أبيك خلال تلك السنوات الماضية، فلقد كان أقصى ما تصورته هو أن يذوب الخلاف بعد أن يتم الزواج، ويصبح أبوك أمام الأمر الواقع.. فتتحرك عاطفته الأبوية تجاهك.. ويعرف أن رفضه لم يعد له ما يبرره، لكنك حققت المستحيل بصبرك وكفاحك وإخلاصك النية في الحصول على رضا أبيك، إرضاء لربك وضميرك ومشاعرك الشخصية الحميمة تجاهه.. وهذا ما أطالب به دائمًا من يستشيرني في مثل قصتك هذه.. فأطالبه بأن يثابر أولًا على محاولة نيل رضا الأهل.. وأن يبذل كل ما في طاقته لتحقيق ذلك.. وأقول له دائمًا: «قد يدرك المتأني بعض حاجته» وأن المسألة تحتاج فعلًا إلى «جهاد» من نوع جهادك هذا، لأن رمز الأب يستحق كل هذا وأكثر، وأروي لمن يسألني دائمًا رأيي أن الخليفة العادل عمر بن الخطاب قد أعاد أبنا وحيدًا من الغزو في جيش العراق لأن أباه توجع لفراقه، وقال له «ألزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا من الدنيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما وسيأتيك عطاؤك» لأنه اعتبر جهاد الابن في رعاية أبيه والبر به في منزلة الجهاد في سبيل الله، ثم أمر بعد ذلك بألا «يغزو» من له أب شيخ إلَّا بعد إذنه.. فما بالك بمن سيتزوج؟ ألا يستحق هذا الأمر وهو الأقل منزلة من الغزو أن يكون بإذن الأب ورضاه.. لكن ذلك لا يعني أيضًا إطلاق الأمر على غاربه.. لأن على الآباء أيضًا أن يكونوا

منصفين لأبنائهم وعطوفين عليهم.. وأن يعينوهم بعدم التعسف على طاعتهم وعدم الخروج على إرادتهم، لهذا جاء في الحديث الشريف «رحم الله امرءًا أعان ولده على بره» أي أعانه بعدله ورحمته وعطفه على أن يكون نعم الابن له.. ونعم النصير، ولو عرف كلا الطرفين واجبهما لكانت كل النهايات سعيدة كهذه النهاية الدرامية العجيبة التي صنعها أبوك، حين تغلبت عليه عاطفته الأبوية في النهاية، فجاء شامخًا كالأسد ليساند ابنه الوحيد في اليوم الذي يحتاج إليه فيه.. ويفخر به ويستند إليه فيه.. وهل الأبوة إلَّا رحمة وعدلًا وسندًا وفخرًا للأبناء؟!

أما أصدقاؤك الخمسة هؤلاء فلقد أحببتهم من كل قلبي، لأنهم فعلًا رجال بحق وأوفياء بحق.. وذوو نخوة وشهامة بحق، ولابد أنك أنت أيضًا كذلك.. لأن «المرء يعرف بأقرانه» كما يقولون. فاهنأ بسعادتك يا صديقي.. والزم أباك العظيم «المتنور بحق» هذا بعدما حدث ولا تخرج عليه أبدًا.. واعرف له قدره لأنه جاهد نفسه طويلًا كما جاهدت أنت ظروفك وغالب مشاعر عديدة ترتبط بتقاليد مجتمعه وانتصر في النهاية للحق والعدل والرحمة.. فلم يكابر أكثر من ذلك، في حين يكابر بعض الآباء ممن يحسبون من قمم العلم والثقافة والمراكز الاجتماعية إلى النهاية، ويصرون على الوقوف في وجه «أحلام» أبنائهم فيدفعونهم دفعا إلى الخروج عليهم.

إن أباك هذا في رأيي أكثر حكمة وثقافة ووعيًا من كثيرين من أمثال هؤلاء.. فاعرف له قدره مرة أخرى، واسعد بفتاتك وبحبك العظيم هذا، وكن كأصدقائك عونًا للآخرين وسندًا لهم عند الحاجة، وستكون كذلك بالتأكيد لأن هذا الشبل من ذاك الأسد «الصعيدي» المتنور الذي يستحق كل الحب وكل الإعجاب مع خالص تمنياتي لك باستمرار السعادة والتوفيق.

المشروع

أكتب إليك هذه الرسالة لاستشيرك في أمري، وأرجو ألَّا تستخف بمشكلتي أو تسخر منِّي لأنها مشكلة حقيقية رغم ما يبدو من بساطتها، وأنا مغلوب على أمري فيها، فأنا سيدي رجل أعمل عملًا محترمًا.. ولي دخل معقول.. وأقيم في شقة جميلة وواسعة، في حي راق، مؤثثة بأثاث جيد.. ولديَّ كل ما أحتاج إليه من سيارة وكماليات.. وقد تخرجت في سن الثالثة والعشرين وبدأت حياتي العملية بعدها بعام، وكنت أعيش مع أمي وشقيقتي الوحيدة التي لم يكن عمرها يزيد على 8 سنوات بعد رحيل والدنا رحمه الله. وكانت ظروفنا الاجتماعية طيبة فقد ترك لنا أبي معاشًا وبعض المدخرات وإيرادًا معقولًا لبعض الأملاك.

وكغيري من الشباب كانت لي بعض العلاقات خلال سنوات الجامعة وبعد التخرج، لكنها لم تصل إلى درجة تدفعني إلى الارتباط مع أي ممن عرفتهن، وبعد أن عملت واستقرت حياتي بدأت أمي تطالبني بالزواج.. وتسألني ألم تعرف زميلة لك في الجامعة تتمنى زواجها؟ فأجيبها بالرفض، ألم تعجبك إحدى زميلاتك في العمل؟ فأجيبها بالرفض، لأني في قرارة نفسي كنت قررت ألَّا ارتبط بإنسانة أنشأت معها علاقة مهما كانت براءة هذه العلاقة! وهكذا بدأت أمي تختار لي من

بين قريباتي.. وعرضت على إحداهن وبسطت أمامي مزاياها من جمال وأخلاق.. وأسرة.. وحالة مادية مقبولة فلم أجد بها عيبًا، ووافقت مبدئيًا وطلبت منها أن تجس نبض أسرتها، فقامت بالمهمة سعيدة وجاءت لي بالقبول.. ولم يبق إلَّا أن تفاتح أهلها.. فإذا بي فجأة اكتشف في الفتاة عيوبًا لم أكن منتبهًا لها فأعدت النظر في الموضوع وفكرت فيه طويلًا.. ثم تراجعت ورفضت فشعرت أمي بالإحراج.. وامتنعت عن زيارة هذه الأسرة التي امتنعت بدورها عن زيارتنا.. لم تلبث علاقتنا بها أن ساءت ثم انقطعت نهائيًا! وبعد ذلك بشهور أعجبتني قريبة أخرى كانت تزورنا مع أمها.. ناقشت الأمر بيني وبين أمي طويلًا.. وانتهينا إلى أنها الأفضل والأجمل والأنسب وقامت بجس النبض مرة أخرى، ثم عادت إلى بالبشرى فإذا بي ارتعب وأعيد التفكير فأجد فيها عيوبًا لم أكن أدركها فتراجعت ثم أصررت على الرفض فخسرنا هذه الأسرة أيضًا.

وبعد ذلك بشهور أخرى تكررت نفس التجربة بنفس الخطوات وبنفس التفاصيل مرة ثالثة ثم مرة رابعة.. ثم مرة خامسة.. وفي كل مرة نخسر أسرة من أقاربنا أو من معارفنا أو من جيراننا، حتى غضبت مني أمي واتهمتني بأني أعبث بها، وأني أريد أن «اقطعها» عن الأهل والأصدقاء فلا نزور ولا نزار!!

وحين رأيت بعدها إحدى فتيات الأسرة في حفل زفاف عائلي، وطلبت من أمي أن تصدِّقني هذه المرة وتقوم بعملية جس النبض.. رفضت رفضًا باتًا وسحبت يدها تمامًا من الموضوع، فبدأت أعتمد على شقيقتي التي كانت قد أصبحت في ذلك الوقت في الرابعة عشرة من عمرها فكان حظها معي أسوأ.. ولم تلبث هي الأخرى أن رفضت أن تتحدث مع أحد في موضوع زواجي، فنقلت نشاطي إلى دائرة الأصدقاء ووسطتهم في أمر زواجي.. فسارعوا بتقديم خدماتهم

لي.. وخذلتهم جميعًا بنفس الطريقة اللعينة: الترحيب والموافقة والفرح بالاختيار وبدء الخطوات التمهيدية.. ثم التردد والوسوسة واكتشاف العيوب والاكتئاب والتراجع.. فنفض أصدقائي أيديهم مني يائسين.. بل وقاطعني بعضهم عقابًا لي على توريطهم في هذه المسائل الحساسة!!

وخلال هذه السنوات اقتربت مني أكثر من فتاة في محيط العمل، وأملت في الزواج منِّي ونشأت بيني وبين كثيرات صداقات.. وميل عاطفي.. لكني كنت أجهضه في اللحظة الحاسمة فينصرفن عني يائسات أو لاعنات أو متهمات إياي بالخداع! وكل ذلك وأمي حزينة على حالي.. وتهددني بأني «سأشيخ» بلا زواج.. وأني سأمضي العمر وحيدًا، ومضت السنوات وأنا أكرر نفس الروتين اللعين مع زملاء العمل والأصدقاء الجدد، الذين لم يلسعهم ترددي من قبل، حتى ساءت سمعتي بينهم وعرفوا جميعًا دائي وأصبحوا يحذرون بعضهم البعض من التعرض لأي موضوع زواج خاص بي، وكبرت شقيقتي وتزوجت وأشرفت على كل أمور زواجها حتى حفل الزفاف وانتقلت إلى بيت زوجها وعاشت حياة سعيدة وأنجبت، ومرضت أمي مرضًا طويلًا ثم انتقلت إلى رحمة الله وخلا البيت من حنانها.

وبعد فترة الحداد نشطت من جديد لتنفيذ المشروع الذي لم يتم.. فوسعت دائرة بحثي، وقد تغيرت الدنيا وأنا لا أحس، فقد أصبحت الدائرة التي كانت واسعة أمامي شديدة الضيق بعد أن تقدم بي العمر، ومع ذلك فأنا مازلت أتفاوض في أمر الزواج.. وأتفرج كل شهر على عروس مناسبة، وأسافر في مهام عاجلة إلى الاسكندرية أو طنطا أو أسيوط، لأتفرج على عروس دعاني بعض الزملاء لرؤيتها.. والداء القديم كما هو.. فهذه أصغر مما ينبغي، وهذه أكبر من المعقول..

وهذه تبدو متزمتة.. وتلك وحيدة يتيمة مما سيزيد المواجع!! وهكذا يا سيدي سنوات وسنوات وأنا أدخل الصالونات، وأحضر الجلسات المدبرة في النادي أو العمل لعل الله يغير من ترددي، بلا فائدة، والدائرة تضيق أمامي شهرًا بعد شهر وعامًا بعد عام، فأخرجت منها الفتيات دون الخامسة والثلاثين، بعد أن بلغت منذ أسابيع سن الخمسين! وقبلت مبدأ الأرامل والمطلقات بلا أولاد، بعد أن كنت لا أتصور نفسي زوجًا إلَّا لفتاة عذراء لم يسبق لها الزواج، ومنذ أيام اكتشفت أني «تفرجت» وبحثت وناقشت أمر زواجي من 122 فتاة منذ بدأت رحلة البحث عن زوجة مناسبة، وإن معظمهن قد تزوجن زيجات سعيدة ومحترمة وأنجبن البنين والبنات، وأني ندمت على ضياعهن من بين يدي وحزنت عليهن جميعًا.. وتساءلت أين كان عقلي حين رفضتهن؟!! ورغم ذلك فأنا لا أسلم بالفشل.. وأتحسر على ما ضاع من العمر في التردد والوسوسة وإجراء الحسابات الطويلة، وأتعجب كيف يمكن ألَّا يوفق الله إنسانا لديه كل الإمكانيات ومكتمل الرجولة في هذا الأمر.. وأتعجب كيف يتزوج الآخرون بهذه البساطة، وقد استغرق مني التفكير في هذا المشروع 26 عامًا ولم يتم حتى الآن، لأني مازلت أتحرى وأدقق فيمن سأختارها لتكون شريكتي بحيث يكون الاختيار سليمًا وبحيث يضمن لي السعادة في حياتي المقبلة، ويتجنب التعاسة التي أخشاها.. فهل عندك تفسير لحالتي هذه؟؟

وهل عندك حل لمشكلتي.. أي عروس تتوافر فيها كل الصفات التي أريدها بحيث أضمن السعادة معها؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ربما أستطيع أن أفسر لك بعض أسباب هذه الحالة العجيبة التي تعاني منها.. لكنني بالتأكيد لا أستطيع ولا يستطيع غيري أن يقدم لك شفاء منها أو «حلا» لها.. لأن علاجها بيدك أنت وحلها لن يأتي إلَّا من داخلك.. فأنت يا سيدي تعاني حالة اعتزاز شديدة بالذات، تتجاوز مرحلة الأنانية إلى مرحلة عشق الذات في النرجسية.. وبسبب هذا التقدير المبالغ فيه لنفسك ضننت بها على من عرفتهن من قبل.. وضننت بها على كل من عُرِضْن عليك لأنك تريد لنفسك عروسًا لم تخلق بعد، وملاكًا مبرءًا من كل الهنات والعيوب، وفتاة مضمونة كالساعات السويسرية، لكي تهبك حياة سعيدة رفيعة المستوى تليق بك.. لهذا فأنت «تنسحب» وتتردد.. وتجري حساباتك الدقيقة لتتأكد من أن من ستنال شرف معاشرتك سوف تحقق كل المأمول منها بلا أي هامش لاحتمال الخطأ.. أو الفشل.. أو التعاسة.

ولهذا أيضا «أبشرك» بعزوبة أبدية.. وباجتماعات سرمدية لدراسة المشروع لن تنتهي إلَّا مع إيذان شمس العمر بالمغيب.. لأنه لا أحد يستطيع أن يضمن المستقبل سوى الله سبحانه وتعالى، ولأننا لسنا مطالبين في هذا الأمر وفي غيره من الأمور سوى بأن نحكم العقل في حدود قدراته، وأن نتلمس أسباب الوفاق والنجاح في حدود الممكن، ثم نترك الأمر بعد ذلك لمالك الملك.. وندعو لأنفسنا بالسعادة والتوفيق.

أما التحسب الشديد.. والحسابات الدقيقة، فلم تضمن لأحد السعادة من قبل ولن تضمنها لأحد من بعدك، لأن لكل إنسان مهما بلغت دقة حساباته نصيبه

المقدور من السعادة أو الشقاء، ولأنه ليست هناك حياة كاملة السعادة إلَّا في الجنة ولا حياة دائمة الشقاء إلَّا في الجحيم، وإنما هناك دائمًا سعادة وشقاء وآلام وأفراح، ونصيب كل منا من الهناء أو المعاناة يتحدد بقدر ما ينال من نِسَبِ هذا المزيج العجيب الذي يصنع الحياة.

وأنت ياسيدي تعاني شيئًا أخطر من ذلك، هو الشك وسوء الظن بالآخرين، اللذان يخلقان عندك مشكلة التردد «الهاملتي» هذا، فأنت ترى العيوب في الآخرين قبل أن ترى فيهم محاسنهم.. وتتوجس شرًا منهم قبل أن تستبشر خيرًا بهم، ثم تحزن وتندم حين تراهم وقد أثمرت زيجاتهم وعاشوا فضلاء أسوياء بعيدًا عنك، ولهذا الشك وسوء الظن علاقة بأفكارك التي دفعتك إلى رفض كل من اقتربت منك، وأملت في الزواج منك معتبرًا ذلك دليلًا أكيدًا على ضعف أخلاقياتها، ناسيًا دورك الأساسي أنت في هذا الاقتراب الذي ينحدر إلى مستوى الغش والخداع، وأنت تسعد بقرب الأخريات، وأنت تضمر لهن في نفس الوقت أسوأ الآراء والظنون فيهن.. وهو انفصام شديد بين السلوك والمعتقدات من الطبيعي أن يضعك في هذا الموقف الغريب.. وأن يضيع عليك كل الفرص الطيبة وأن يسرق منك العمر وأنت مازلت تبحث عن الضالة المنشودة!

إنني في هذا المجال أؤمن بقول الشاعر: «إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه» لأن التجارب السيئة تفقد الإنسان براءة المشاعر وتفقده حسن الظن بالآخرين، وتصور له أن الدنيا بأسرها هي مالمسه بنفسه في بعض تجاربه السيئة المحدودة.

ولهذا أيضًا فإني كثيرًا ما أصدق قوله ميترلنك «كن كاذبًا تسرع إليك الأكاذيب» ففي أي طريق تذهب لن يكون قدرك غالبًا سوى صورة من نفسك!.

فإذا أردت لنفسك أن تنجو من الوحدة ومصاحبة الأوهام والأشباح في شيخوختك فتخلَّص من ترددك على الفور، واقتنع بأنك إنسان عادي مثلنا ومثل الجميع، واقبل لنفسك ما قبله الآخرون لأنفسهم فلست بأفضل منهم.. ولا أخطر شأنا، فالحياة يا صديقي عمل وزواج وسعي دائم لتحقيق إرادة الحياة في تطورها نحو الأفضل والأنفع، كما يقول بصدق أستاذنا نجيب محفوظ في إحدى روائعه.

ومن التقصير الشديد في حق نفسك التي تقدسها إلى هذا الحد، أن تحرمها من شرف المحاولة الجادة للوصول إلى السعادة التي تنشدها.. فإن سعدت كان ذلك غاية المنى، وإن شقيت فلقد كفاك شرف المحاولة.. وكفاك أنك كنت شجاعًا ولم تهرب من المعركة.. وفي كلتا الحالتين لن تخسر أبدًا في رأيي، لأن هموم الزواج في مثل حالتك أنبل وأهون كثيرًا من هموم الوحدة والعزوبة الأبدية، ولا شك أنك بخوفك من المستقبل تحرم إنسانة ما تستحقك من حقها المشروع في أن تهجع سفينتك إلى مرفأ الأمان معها، لهذا قال الإمام أبو حنيفة مشيرا إلى من تؤهله ظروفه للزواج ولا يتزوج: إن شرار الناس عند الله عزابهم!!

وقديماً قال سقراط لأحد تلاميذه: «تزوج يا ولدي فإن كانت زوجتك طيبة ستصبح سعيدًا وإن كانت زوجتك سيئة فستصبح فيلسوفا»

فتحرك يا صديقي فلقد استغرق بناء السد العالي 9 سنوات فقط، وأنت بعد 26 سنة من «التخطيط» و «الإعداد» لم تضع بعد حجر الأساس لمشروعك العجيب هذا.. فماذا تنتظر لكي تهرب من وحدتك إلى نادي السعداء.. أو إلى «مجمع» الفلاسفة؟!

منزل العائلة المسمومة

«هذه رسالة جديدة من رسائل الاعتراف التي أتلقاها بين حين وآخر، فتصدمني بما تكشفه لي من خفايا النفس البشرية التي لم يطلع - بعد - أحد على كل أسرارها وخباياها.. مهما ادَّعى علماء النفس والكتاب والمفكرون».

تقول كلمات الرسالة:

اسمح لي بألَّا أناديك في رسالتي هذه بصديقي كما يفعل قراؤك، لأني في الواقع لا أستحق صداقتك، ولا أظنك سوف ترحب بها بعد أن تنتهي من قراءة رسالتي هذه.

ولأبدأ القصة من البداية فأقول لك إنني طالبة جامعية تتكون أسرتي من أب يشغل مركزًا كبيرًا وأم ربة بيت هادئة، وشقيقة طالبة جامعية تكبرني بثلاثة أعوام وتتقدم عني في الدراسة بعام واحد، ومنذ طفولتي المبكرة وأنا أشعر بالفارق بيني وبين شقيقتي هذه في المعاملة من جانب أبي وأمي، فهي دائمًا المستأثرة بكل الحب والتدليل، وأنا المستأثرة بكل الزجر والتعنيف. وهي التي تُشْتَرَي لها الفساتين الجديدة بغلافها من المحلات. أما أنا فأرتدي نفس الفستان بعد عام من الاستعمال عندما يضيق على جسمها، وهي التي إذا نوديت.. نوديت بالرقة والحنان والعطف،

وأنا إذا نوديت نوديت بالجفاء والتجهم، وكل ذلك بحجة أنها العاقلة المتزنة.. أما أنا «فالشقية» «الرزلة». ومضت الحياة بنا على هذا النحو حتى وصلنا إلى المرحلة الجامعية، ورغم أنها تكبرني بثلاث سنوات فقد كدت ألحق بها في الجامعة لأنها رسبت أكثر من مرة، ورغم هذا فإن ذلك لم يهز من مكانتها في الأسرة ولا من حب أبي وأمي لها، بل استمرت تحظى بالحب والرعاية. واستمرت اللعنات من نصيبي، لأن لي على حد قولهم أفكارًا خاصة ومتطرفة لا تعجبهم، ولا أخفي عليك أن كراهيتهم جميعًا كانت قد استقرت تمامًا في أعماقي خلال هذه المرحلة. ولعل هذا هو ماهيَّأ المسرح للحدث العجيب الذي شهدته حياتي بعد ذلك، فبالمصادفة البحتة وقع نظري على اسم فيلم مصري في إحدى المجلات، فإذا بفكرة شيطانية تقفز إلى ذهني وتسيطر عليَّ تمامًا بعد ذلك لعدة أسابيع.. أما اسم الفيلم اللعين فهو «منزل العائلة المسمومة» وأما الفكرة الشيطانية فهي أن أدس السم لأسرتي في الطعام لكي أتخلَّص منها وأعيش بمفردي سعيدة وأتمتع بالحياة، وأتخلص من المضايقات التي أحس بها من استمرار تفضيل أختي عليَّ واختصاصها بالحب والتقدير دوني.

وبكل أسف فلقد كنت قد شاهدت في إحدى الحلقات الأجنبية جريمة مماثلة تم خلالها دس السم لشخص تدريجيًّا على جرعات صغيرة حتى مات، ولم يكتشف الأطباء سبب وفاته، فقررت أن أنفذ نفس الفكرة حين تتاح لي الفرصة المناسبة، وجاءت الفرصة بأسرع مما توقعت، إذ أصيبت أمي في ساقها بكسر بسيط اضطرها إلى ملازمة الفراش وعدم الحركة. فنهضت متطوعة للقيام بكل أعمال البيت طالبة من أختي أن تتفرغ للأستذكار لكيلا يتكرر رسوبها - خوفًا على مصلحتها - وقمت بدور الراهبة التي تتفانى في خدمة الجميع وتضحي بنفسها من أجلهم، ولمحت في عيونهم ملامح الإكبار لهذا التصرف، لكن ذلك لم يردني بكل أسف عن المضي في تفكيري.

وهكذا وفي لحظة أعماني فيها الحقد على أقرب الناس لي، وضعت في الطعام الذي طهوته لهم كمية صغيرة من مبيد للصراصير، كررت هذه الفعلة الشنيعة مرتين خلال أسبوع ثم توقفت عنها. وقد تعتقد أنني قد توقفت عنها لأن ضميري قد استيقظ وأنَّبني على ما فعلت وقال لي كيف تفعلين هذا بأمك التي حملتك وهنا على وهن، وأبيك الذي يشقى لإسعادكم وأختك التي تحبك - رغم كل شيء - وتخشى عليك من نسمة الهواء؟ وبالتالي فقد توقفت عن الاستمرار في تنفيذ الجريمة. لكن كل ذلك لم يحدث بكل أسف وإنما توقفت عنها بسبب خارجي لا علاقة له بالضمير، فقد حدث بعد أن وضعت المبيد في الطعام بأسبوع أن أعددت سمكًا مشويا لطعام الغداء وكان خاليًا بالطبع من السم. وجلسنا جميعًا حول سرير أمي نتناول الغداء. فإذا بي أشعر بعد قليل من بدء الأكل بأن أحشائي تتمزق.. وبنوبة قيىء شديد تنتابني وبحالة إعياء وإسهال شديدة تفاجئني، وإذا بأمي العاجزة عن الحركة تصرخ مولولة، وتقاوم لتنهض وتسعفني، وأختي تلطم وأبي يبكي ويجري مهرولًا لاستدعاء الطبيب، وخلال لحظات كنت في المستشفى والأطباء من حولي يجرون لي غسيل المعدة، وأبي يتمزق هلعًا عليَّ. وشقيقتي ترتجف وترفض أن تترك يدي، وإذا بالطبيب يقول إنني أصبت بالتسمم من السمكة التي أكلتها.. وأنها السمكة الوحيدة الفاسدة من كل وجبة السمك التي اشتريتها للغداء، وإن أمي وأبي وأختي تناولوا جميعًا السمك معي، ولم يصب منهم أحد بسوء لأن أسماكهم كانت سليمة وكانت سمكتي وحدي هي المسمومة.

وعندما سمعت ذلك انهرت تمامًا وكدت أعترف للجميع بأنني دسست لهم السم في الطعام مرتين، لكن شيئًا ما ألجم لساني فلم أنطق بشيء، لكن عذابي تضاعف أكثر وأكثر مع ما لمسته من أسرتي من عطف عليَّ واهتمام بي، فأمي لم تنم

الليل.. وتظل كل بضع دقائق تزحف بساقها المجبورة في الجبس والممنوعة من تحريكها بأمر الطبيب وإلّا تأخر شفاؤها، لكي تطل علي في سريري وتبكي وهي تضع يدها على خدي وجبهتي.. وأبي الوقور صاح طوال الليل يغالب دموعه ويأتي كل دقائق إلى حجرتي ليطمئن علي، وشقيقتي الحنون تركت دراستها وكتبها وسهرت إلى جواري طوال الليل لتخدمني وكلما طلبت منها أن تذهب إلى حجرتها للمذاكرة أبت وبكت.

ووسط هذا العذاب النفسي وجدتني أكتب إليك لأستشيرك فيما أفعل لكي أتخلص من عذابي وأكفر عن جريمتي.. إن أحدًا لم يصب منهم بسوء والحمد لله، لكني أخشى أن يؤثر عليهم ما تناولوه من طعام مسموم في المستقبل.. فهل يمكن أن تستشير طبيبًا ليطمئنني من هذه الناحية، ثم هل تنصحني بأن أعترف لهم بما حدث وأن أطلب صفحهم عنيِّ وغفرانهم.. أم بماذا تنصحني؟

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هذه هي رسالة الاعتراف البشعة التي تلقيتها في بريدي فأهاجت مشاعري وأثارت ضيقي بأشياء عديدة في الحياة ولكاتبتها أقول: لقد ظلمت نفسك وظلمت أسرتك بهذا التفكير الإجرامي الذي قادك إليه إحساسك بالنقص تجاه شقيقتك الكبرى، وإحساسك بتمييز أسرتك لها عنك، وللأسف فإن هذا الإحساس القاتل كثيرًا ما يقود الخاضع له إلى سلوكيات انتقامية خطيرة قد تعبر عن نفسها بشكل أخطر في تصرفات عدوانية إجرامية ضد الآخرين، وبالذات ضد

الأشقاء المميزين والآباء والأمهات. لكن هذه المشاعر وأنت في سن النضج فهذا هو الجنون بعينه فأنت لو راجعت نفسك بهدوء لعرفت من البداية أن اختصاص أختك بالملابس الجديدة التي ترتدينها أنت بعدها.. هو تصرف اقتصادي بحت تلجأ إليه أسر عديدة بهدف توفير نفقات الملابس في ظروف الحياة الصعبة التي تواجهها، ولا يستهدف أبدًا تمييز شقيقتك عليك لسبب بسيط هو أنك وشقيقتك فلذتا كبد واحدة ترق لكل منكما بنفس الدرجة، ولو كانت إمكانات أبيك تسمح له بشراء الجديد لك ولأختك معًا لما تردد لحظة واحدة في ذلك، وقد ثبت لك بالتجربة الأليمة وفي وقت المحنة أنك أعز على أبيك وأمك وشقيقتك مما صورت لك نفسك الشقية.

وأما اختصاص أختك بالنداء الرقيق.. واختصاصك بالجفاء والزجر بحجة أن لك أفكارًا خاصة متطرفة، فلابد أنك واهمة في ذلك إلى حد كبير، ومع ذلك فلعلك قد التمست لهما الآن بعض العذر في سوء ظنهما بأفكارك، بعد أن أثبت أنت لنفسك مدى «تطرف» وخطورة بعض هذه الأفكار!

ومع ذلك فلكم تخدع المظاهر يا ابنتي.. ولكم يتصور بعض الأبناء ما لا صحة له ولا أصل؛ بسبب حساسية مريضة وبسبب بعض التصرفات غير المقصودة، وإن كنت أعتبر التمييز بين الأبناء جريمة لا تقل بشاعة عن جريمتك، لذلك فإني لا أعفي أباك ولا أمك من بعض المسئولية عن هذا الانحراف الخطير في تفكيرك، الذي صور لك الأمر وكأنه تمييز بينك وبين شقيقتك، وقد كان حقًّا عليهما أيضًا أن يشعراك دائمًا بأنك الابنة المحبوبة المحترمة منهما - رغم كل شيء - وكان حقًّا عليهما أن يشعراك دائما بأن منزلتك في قلب كليهما مساوية تماما لمنزلة شقيقتك بغير انتظار لمحنة تكشف عن حقيقة المشاعر، وتفجر ينابيع العطف والحنان في

قلبيهما تجاهك، إذ لماذا يارب لا نعبر عن حبنا لأعزائنا إلَّا في الملمات والكوارث؟ والكلمة الطيبة الصادقة ترقق القلب وتلمس المشاعر ونحن في حاجة إليها دائماً.. وأبناؤنا في حاجة إليها كل حين مهما كبروا ونضجوا.. لقد عجبت كثيرًا لتفكيرك الإجرامي في التخلص من أسرتك لمجرد الإحساس بتميز شقيقتك عليك.. لكني عجبت أكثر وأكثر من هذه الفكرة الطائشة التي دفعتك إلى هذه الجريمة... وهي أن تعيشي سعيدة منفردة وأن تتمتعي بالحياة!

فمن الذي أوحى لك بهذه الفكرة الخاطئة من أساسها يا آنستي؟ ومن الذي قال لك إنك كنت ستعيشين - حتى لو نجوت من عقاب القانون والمجتمع - منفردة سعيدة ويداك ملوثتان بدماء أقرب الناس إليك وأرحمهم بك، بل من الذي قال لك إن الإنسان يستطيع، بصفة عامة - حتى بغير جريمة - أن يحيا «وحيدًا» منفردًا سعيدًا وأن «يستمتع» بالحياة!

أتظنين أن في الحياة إنسانًا يمكن أن يهمه أمرك حقيقة بعد - أمك وأبيك - أسرتك وأهلك؟ أو بعد أن تفقدي من وصف الشاعر الرسول الكريم نفسه.

فإذا رحمت... فأنت أم أو أب　　　هذان في الدنيا هما الرحماء!

ألا ترين بعض أصحاب الملايين الذين يحيط بهم الأتباع والمنتفعون من كل ناحية، وتضج حياتهم بالصخب والمعارف والأصدقاء، يتلفتون حولهم دائماً بعد أن تنتهي مرحلة الجري وراء المال، ليلتمسوا لأنفسهم بعض الأهل والأقارب البعيدين لينتسبوا إليهم، ويقربوهم منهم التماسًا لدفء المشاعر الحقيقية ولسان حال بعضهم يقول «ليتني أستطيع أن أشتري بملاييني عطف أم أو رعاية أب أو حدب شقيق أو فخر قريب بي» ألم تقرأي أن أرسطو قال قبل فجر التاريخ: «إذا عشت منفردًا فإما أن تكون حيوانًا وإما أن تكون إلها!! فلما جاء فيلسوف

القوة وتمجيد البطولة نيتشه بعده بعشرات القرون قال: وإما أن تكونهما معًا! أي أن فيلسوف القوة نفسه قد أيده في استحالة أن يحيا الإنسان لنفسه وبنفسه فقط..فماذا عنا نحن.. ونحن من «فلاسفة» الضعف الإنساني! الذين نقف في الحياة نشكو «آهٍ» من قلة الزاد.. وبعد السفر ووحشة الطريق على من لا أهل له ولا صحاب!

إن الحيوان وحده هو الذي لا يعنيه أن يكون له أهل ولا صحاب.. أما نحن فما أحوجنا إليهم لكي نحتمي بهم من هذه الدنيا القاسية، وأنت مصابة بانحراف خطير في التفكير يا آنستي.. لا أعرف من المسئول عنه، لكنني أعرف على الأقل أن ضعف إيمانك بالله وابتعادك عنه.. ونسيانك له هو السبب الأول في هذه المحنة.. وإذا كنت لم أطل الحديث عن جريمتك من الناحية الدينية والخلقية فلأنني اعتبرها في غير حاجة للمناقشة، لأن المؤكد أنه لو كان للدين دور ما في حياتك لما أنقدت أبدًا إلى مثل هذه الجريمة البشعة.

تسألينني بعد ذلك هل تعترفين لأسرتك بما اقترفت في حقها وأقول لك: رغم أني دائما من أنصار أن يتطهر الإنسان من خطاياه بالاعتراف والتوبة والعمل الصالح والتفاني في خدمة من أراد بهم السوء. فإني لا أنصحك بالاعتراف لأسرتك بما فعلت... مفضلًا على ذلك ألّا تصدمي مشاعرهم بهذه الجريمة القاسية.. وألّا تهزي هذه الروابط الإنسانية التي فطر عليها الإنسان بإطلاعهم على جريمتك.. فالحق أني أفضل لهم - من باب الرحمة بهم - ألّا يعرفوا ما أردت لهم وهم من ينطوون على كل هذا الحب الفطري لك، وما أظن أن أية كلمات أو تصرفات يمكن أن تمحو من نفوسهم الأثر البشع لهذه الجريمة إذا ما عرفوا بها، فدعيهم في حبهم لك وعطفهم عليك وثقتهم في سلامة النفس البشرية والعلاقات الأسرية العاطفية، وكوني أكثر شجاعة من ذلك بالاتجاه إلى أي طبيب في مدينتك واسأليه

عن أثر هاتين الجرعتين من المادة السامة مدعية أنك أنت من تعرضت لتناولهما خطأ.. ونفذي ما ينصحك به من وقاية على أسرتك المحبوبة لأنك لم تحددي لي نوع السم ولا مقداره لكي أستطيع أن أفيدك برأي في هذا المجال.

وكفري عن خطيئتك في حق أسرتك بالتوبة إلى الله والعودة إليه، وأداء الفرائض والتقرب إلى الله طلبًا لمغفرته وكفِّري عنها أيضًا بالتفاني في حب أسرتك وخدمتها وفي حب الآخرين وخدمتهم وكف الأذى عنهم.

ولعل ما حدث لك حين «اختارتك» السمكة المسمومة من بين كل السمكات السليمة لكي تأكليها أنت وتعاني آلام التسمم وهلع الموت، خير إشارة لك ولكل من ينسى أحيانًا أن في السماء إلهًا مطلعًا على السرائر.. وينزل بعقابه العاجل على من يشاء.. ويؤجل العقاب لمن يشاء.. فلقد «اختارتك» هذه السمكة المسمومة من بين كل أفراد أسرتك ولم تختاريها أنت لكي يقول لك ربك بالدرس الأليم: ذوقوا ما كنتم بغيركم فاعلين!

فلعل في هذه الإشارة ما يرمز إلى أن الله سبحانه وتعالى قد حماك من نفسك لكيلا تستمري في ارتكاب جريمتك، وحمى أسرتك البريئة من وساوس نفسك الأمارة بالسوء، لكيلا يعرضك لما أردته لنفسك وأسرتك من محنة بشعة. أما اسم الفيلم الذي أوحى إليك بهذه الجريمة.. ومضمون الحلقة الأجنبية التي رسمت لك خطتها فهذا حديث طويل ولا نملك إزاءه إلَّا أن ندعو الله أن يحمي مجتمعنا من أمثال هذه النوازع الإجرامية.. وأمثال هذا العقوق البشع..

وليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك - وللجميع - خطاياهم وجرائمهم ونوازع نفوسهم الشريرة والسلام!

منزل العائلة السعيدة

هل تذكرني؟ إنني الفتاة التي كتبت إليك منذ حوالي سنة لأروي لك تجربة فريدة ومؤلمة في حياتي.. بدأت حين صورت لي أوهامي أن أبي وأمي يفضلان عليَّ شقيقتي الكبرى، وأن الثلاثة لا يحبونني، فبدأت أدس لهم السم في الطعام على فترات لكي أستريح مما تصورته إساءة معاملتهم لي، ثم حدث بعد ذلك أن تناولنا جميعًا أكلة سمك مشوي لم أشترك في صنعها. فإذا بي أصاب وحدي بتسمم لأن من بين السمكات التي اشتريناها كانت هناك سمكة واحدة مسمومة جاءت من نصيبي أنا... ورويت لك كيف اكتشفت حب أبي وأمي وأختي لي في هذه اللحظات، وكيف انخلعت قلوبهم عليَّ وكيف كنت أفيق من الغيبوبة فأرى أمي الحبيبة وأختي وأبي يبكون ويسهرون حول سريري حتى الصباح. فندمت على مابدر مني تجاههم وطلبت من ربي الصفح.. وكتبت إليك أسألك عما أفعل لكي أكفر عن جريمتي هذه، فنشرت رسالتي بعنوان «منزل العائلة المسمومة»، ورددت عليَّ ردًا قاسيًا قلت لي فيه إنني قد تجردت من كل ضمير ومن كل قيمة إنسانية حين فكرت هذا التفكير الإجرامي تجاه أهلي.. لكنك في النهاية نصحتني بألا أعترف لهم بما فعلت خوفًا من أن يفسد هذا الاعتراف عليهم سعادتهم وعلاقتهم بي

ونصحتني بأن أكفر عن جريمتي بطلب المغفرة وحسن معاملتهم ومبادلتهم حبًا بحب، بعد أن امتحنت الأيام حبهم لي وأزالت الغشاوة عن عيني.

ولهذا فعلت ما نصحتني به يا سيدي، وتغيرت حياتي تماما بعد أن اعترفت لك بما أقدمت عليه.. كان اعترافي بذنبي قد طهرني منه وأضاء لي حياتي.. بل كأن الله قد أراد أن يطهرني من كل النيات السيئة فلقد مَنَّ الله على أمي بالشفاء بعد أن كانت مريضة، وقامت من رقدتها لترعى شئوننا وأصبحت تعاملني برقة شديدة كأنها كانت تعرف ما حدث.. أو كأنها عرفت من ردك على رسالتي أن أسرتنا هي المقصودة.

ولقد نجحت في دراستي أيضًا ونجحت أختي وتقدم لخطبتها شاب ممتاز وأقمنا لها حفل خطوبة جميلًا، أشرفت أنا على كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى الفستان الذي ارتدته تركت لي أختي حرية اختياره، كأنني أنا العروس. ولا أستطيع أن أصف لك كم كانت فرحتي غامرة وأنا أرى يدها محاطة بالسوار الذهبي الأنيق، وهي تنظر إلي نظرة كلها حب وتقول لي «عقبالك وتكون إن شاء الله حفلة أكبر.. لأنك أحسن مني بكثير»!

فانفجرت في البكاء وأنا أحتضنها.. وأنا أكاد أصرخ وأقول لها بل أنت الأفضل والأحسن لأن قلبك أبيض لم يلوثه الحقد الذي لوث قلبي ذات يوم، حتى كدت ارتكب أخس الجرائم ضد أحب الناس لي وتدفقت دموعي.. وكل من حولي فرحون ويقولون إنها دموع الفرح.. لكنك وحدك يا سيدي الذي تعرف أنها كانت دموع الندم.. إذ لولا إرادة الله لتحولت حياتي إلى جحيم أودى بي إلى الجنون.

إنني الآن على أعتاب التخرج وسأسعد بنجاحي وسط أهلي، وبين أحضان أبي وأمي وأختي الحبيبة وستكون قلوبهم هي أول وأكبر من يسعد بي ويفرح لي.

لقد كان ردك على رسالتي. مرشدًا لي رغم قساوته، فرأيت أسرتي بعيون جديدة لم أكن أراهم بها من قبل.. ورأيت الدنيا بإحساس جديد لم أكن أحسه.. وأصبحت أحب الناس.. ويحبونني بعد أن كنت أتصور أنه لا أحد يحبني في الدنيا كلها.

إنني أكتب إليك هذه المرة لأقول لقرائك إن على كل إنسان أن يفكر ألف مرة قبل أن يفكر في إيذاء الآخرين. وليعلم أن ربك لبالمرصاد لكل معتد أثيم.. ولأقول لهم أيضًا إنه لو نظر كل إنسان إلى أخيه بحب كما فعلت بعد تجربتي المريرة لصفت النفوس ولأصبحت الحياة أجمل كثيرًا.

هذه هي رسالتي الثانية إليك.. واسمح لي بأن أقول يا صديقي بعد أن أصبحت جديرة بهذه الصداقة.. إنها رسالة حب للناس والبشر والحياة بعد أن كتبت إليك من قبل رسالة حقد ومرارة شاء الله تعالى أن يطهرني منهما.. وشكرا لك.

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

وشكرا لك أنت أيضًا يا صديقتي لأنك أطلعتني على هذا الجانب المضيء من تجربتك العجيبة! لقد تذكرت رسالتك الأولى على الفور.. وتذكرت كم أفزعتني وكم تعجبت من أن تقدم فتاة مثلك على هذا العمل الخطير ضد أسرتها لمجرد أنها

توهمت أن أبويها يفضلان شقيقتها عليها، أو أن أسرتها لا تحبها بل وتذكرت أيضًا كم وقفت متأملًا أمام هذه العدالة الإلهية التي أرادت أن تنقذك من ضلالك، فاختارتك وحدك من بين أفراد أسرتك لتذوقي آلام التسمم التي فكرت في لحظة جنون أن تعرضي أسرتك لها.

إن الإنسان يواجه في حياته أحيانًا لحظات عصيبة تكون بمثابة لحظة التنوير التي تزيل عن عينيه الغشاوة، وتكشف له مالم يكن يعلم من حقائق الحياة.. وسعداء الحظ هم من يصادفون هذه اللحظة قبل فوات الأوان.. وقد شاءت الأقدار أن تأتي لحظة التنوير في حياتك وأنت بين الموت والحياة، وقبل أن تستكملي خطتك العجيبة، فعرفت عندها كم كنت ظالمة لنفسك ولأسرتك حين فكرت في الانتقام من أكثر الناس حبًّا لك، ورفقًا بك وهلعًا عليك وأصبحت الآن تحبين أبويك وشقيقتك.. وتستمتعين بحبهم لك.

وأصبحت الآن تحبين الحياة وترين فيها الجمال.. بعد أن كنت لا ترين فيها سوى السواد.

ولم يتغير أبواك ولا شقيقتك.. ولم يولد حبهم لك فجأة وأنت معلقة بين الموت والحياة، وإنما أنت التي تغيرت حين تطهر قلبك من الكراهية.. وأنت التي ولدت من جديد حين دخل الحب قلبك فلمست فيهم ما أعماك عنه - من قبل - الحقد ورأيت في الدنيا ما حجبته عنك - من قبل - مشاعر الكراهية، لهذا قيل يا صديقتي إن عين الكراهية ترى السواد في كل شيء ولو كان ضوءًا باهرًا، وعين الحب ترى الجمال في كل شيء ولو كان سوادًا حالكًا.

ومن أخطاء البعض أنهم يتلفعون بحقدهم وكراهيتهم للآخرين، ثم ينتظرون أن يحبوهم.. وقد يلومونهم لأنهم لا يفعلون!

في حين أنه يندر أن يكره الإنسان إنسانًا آخر بغير أن يستشعر الآخر كراهيته له، وأن يبادله كراهية بكراهية ولو بعد حين، كما يندر أيضًا أن يحب الإنسان الآخرين بغير أن يستشعروا حبه لهم، وأن يبادلوه حبًا بحب ولو بعد حين أيضًا.

ولعل في هذا إحدى صور العدالة الإلهية التي تنظم الحياة، والتي لمست إحدى آياتها العجيبة فيما حدث لك.

لكن هذا حديث آخر ولن أطيل عليك فيه، لأنك قد استوعبت درس التجربة ولم تعودي في حاجة إلى النصيحة.

فاسعدي بحياتك.. وواصلي تفكيرك عما فكرت فيه ذات يوم بمضاعفة مشاعر الحب والود والعرفان التي تحملينها لأسرتك الصغيرة.. مع تمنياتي لك بالسعادة.

بلا شراع

أكتب إليك يا سيدي لأروي لك قصتنا، وأرجو ألَّا تضيق بها وتتسرع في الحكم علينا، فلقد بدأت قصتنا حين رحلت أمي وتركتنا وراءها ثلاثة من الأبناء، كنت أنا أكبرهم في الثانية عشرة من عمري، وكان أصغرنا رضيعًا لم يكمل شهور عامه الأول.. وأراد أبونا أن يضمنا إلى زوجته الأخرى التي أنجب منها ولدًا وبنتًا فرفضت زوجته. وتوصل الزوجان إلى حل وسط وهو أن تحضر اختنا من أبينا لتقيم معنا وترعى الطفل المولود.

وجاءت أختنا لتعيش معنا وتقوم بدور الأم لنا نحن الثلاثة.. وبرغم أن عمرها في ذلك الوقت لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة. فلقد أشعرتنا نحن الثلاثة بأنها أم لنا فعلًا وليست أختًا لنا، فتولت رعاية شقيقنا الرضيع وتحملت مسئولية البيت كاملة، واستجابت راضية لطلب أبي حين أراد منها أن تتوقف عن الدراسة لكي تتفرغ لرعاية المولود، وتوقفت فعلًا عن الدراسة لمدة 6 سنوات حتى اشتد عود شقيقي الصغير، وبعد ذلك عقدت العزم على استكمالها، وحتى بعد أن عادت للدراسة لم تكن تهمل شئوننا، بل كانت لا تذاكر دروسها إلَّا بعد أن ننام جميعًا. كما كانت تحافظ على زيارة أمها وشقيقتها في مواعيد دورية لأنهما يقيمان في مدينة أخرى، وكلل الله جهودها بالنجاح فحصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير

واستعدت لدخول الجامعة، فأصر أبي على تزويجها من شاب من أبناء المحافظة التي تقيم فيها أسرتنا.. وكانت أختي ترغب في استكمال دراستها الجامعية قبل الزواج، لكنها لم تستطع أن تغضب أبي فاستجابت راضية لطلبه وتزوجت.. وتركتنا، انتقلت إلى المدينة التي يعمل بها زوجها.. وتقدمت للالتحاق بالجامعة فيها.

ونظَّمت حياتها بين رعاية بيت زوجها وبين دراستها.. وبين رعايتنا نحن «أبناؤها» الثلاثة رغم أننا نعيش بعيدًا عنها في القاهرة.. فكانت تزورنا بانتظام مرة كل أسبوع لتطمئن علينا وترتب لنا أمور معيشتنا، وتعد لنا طعامًا يكفينا لمدة أسبوع، ثم تعود مودعة منا بالحب والعرفان إلى مدينتها وبيتها ودراستها.

ومع كل هذه المسئوليات فلقد تفوقت في دراستها الجامعية.. وتخرجت بتقدير متفوق رشحها لوظيفة مرموقة، وبدأت تعد لدراسة الماجستير وكأن الأقدار لم ترد لها أن تعفيها أبدًا من المسئولية طوال حياتها.. فقد رحلت زوجة شقيقها الأكبر وتركت طفلة عمرها شهور.. فلم تتردد أختي في ضمها إليها في بيتها لترعاها كما رعت شقيقي الرضيع من قبل وأصبحت الطفلة لا تعرف لها أمًّا غيرها.

وخلال ذلك رحل والدنا عن الدنيا وترك لنا ميراثًا يكفينا لحياة ميسورة، وكان كل منا قد عرف طريقه في الحياة فأصبحت أنا الآن نقيبًا بالشرطة، وأخي الأوسط محاسبًا وأخي الأصغر طالبًا في بداية المرحلة الثانوية، أما أخي من أبي فقد أصبح مهندسًا معروفًا.

ورأت أختنا أو أمنا بمعنى أصح بعد رحيل أبينا أننا جميعًا لسنا في حاجة إلى هذا الميراث لأن لكل منا دخله، وحتى شقيقي الطالب بالمدرسة الثانوية فإن لديه معاش أبيه لذلك فلا داعي لتقسيم الميراث أو التصرف فيه لكيلا يتفتت ويضيع، وأنه من الأفضل ألَّا نتصرف فيه وأن نعيش مما يدره من دخل مهما كان قدره.

لكننا يا سيدي للأسف ضعفنا أمام ما يمثله لنا تقسيم الميراث وبيعه من إغراء.. فنسينا في لحظة كل شيء وطلبنا منها.. وأرجو ألَّا تصدم فينا. التنازل عن نصيبها من الميراث لنا لكيلا تذهب أموال الأسرة إلى غريب. لأن أختي لم تنجب.. وتمادينا فقلنا لها في لحظات الشر إننا سنكون ورثتها في كل الأحوال، سواء تسلمت الميراث أم لم تتسلمه. فالأفضل أن تتنازل عنه الآن.. وتمادينا أكثر فقلنا لها إنها مريضة بالقلب وإنه من الأفضل أن تحمي أموال الأسرة بالتنازل عن نصيبها لإخوتها.

وصعقت أختي مما سمعت، وأصرت على الرفض. ثم جاءنا ذات يوم زوجها ليقول لنا إنه سيطلقها لأنها ترفض ترك وظيفتها.. فاتفقنا معه أن يهادنها وأن يقنعها بالتنازل عن ميراثها مقابل أن نعطيه مبلغًا من المال يبدأ به مشروعه الذي يحلم به ثم يطلقها بعد ذلك!

فتمسكت أكثر بكل حقوقها أمام عنادنا «ونذالتنا».. وحصلت على نصيبها كاملا. لكنها لم تنس لنا ما فعلناه معها.

وبعد انتهاء المشكلة وحصولها على حقها علمت بأمر هذا الاتفاق وتأكدت منه فانهارت ولازمت الفراش بضعة أيام، وعندما برئت من الأزمة الصحية أمضت عدة أيام ساهمة حزينة صامتة لا تكلم أحدًا.. ثم غادرت بيتها ذات صباح وتوجهت إلى البنك الذي تودع به أموالها وسحبت مبلغ ألف جنيه.. ثم رحلت.. إلى أين؟ لا أحد يعلم.. اختفت تمامًا.. بحثنا عنها في المحافظة التي نقيم فيها فلم نجد لها أثرًا، وبحثنا عنها عند أقاربنا في القاهرة فلم نتوصل إلى أي خبر عنها.. وبحثنا عنها في الاسكندرية فلم نعثر على طرف خيط يقودنا إليها.. وسألنا في المطار وفي الموانى، فتأكدنا من أنها لم تستقر خارج مصر لأن سفرها يحتاج إلى موافقة جهة عملها التي لم تعطها هذه الموافقة.

تسألني بالطبع لماذا أكتب إليك هذه الرسالة فأقول لك.. إننا نعرف أننا أخطأنا في حقها.. وإن خطأنا فوق كل اعتذار.. ونعرف إننا أخذنا منها الكثير ولم نعطها شيئًا.. فلقد كنا نعرف أن حالتها الصحية سيئة وأن قلبها ضعيف ومع ذلك لم يفكر أحد منا في أن يسألها عما وصلت إليه حالتها.. وكنا نعرف أن علاقتها بزوجها مليئة بالمشاكل وأنها تتحمل الكثير ولم يفكر أحدنا في التدخل بينهما.. وكنا نعرف أنها لن تنجب أطفالا لأن في ذلك خطرًا على صحتها.. ولم نحاول مواساتها بكلمة.. والآن اختفت أختنا وأدركنا كم كنا قساة معها.. لذلك لجأنا إليك لأننا نعلم أنها في كل الظروف كانت تقرأ بابك وتناقشنا في مشاكله وتفكر في حلول لها.

إننا نرجوك أن تكتب وأن تقول لها: عودي إلى بيتك وعملك ودراستك.

وعودي إلينا لأننا لن نسامح أنفسنا أبدا إذا لم تسامحينا، ولنقول لها أيضا إن ابنة أخيها اليتيمة تبكيها.. وتناديها وأن أخاها الأصغر الذي لم يعرف له أما سواها قد حاول الانتحار بعد اختفائها حزنًا عليها.

لقد تركنا أعمالنا وأوقفنا حياتنا للبحث عنها.. فأكتب إليها يا سيدي لتعود إلينا.. وتعود معها حياتنا من جديد.. فهل تفعل!!

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

صدقني يا سيدي إنني لو تركت نفسي على سجيتها لما استجبت لطلبك ولما كتبت إليها أدعوها للعودة إليكم، بعد كل هذا الجحود وهذا النكران؛ لكنني لا

أستطيع أن استسلم لانفعالاتي وحدها لذلك فلسوف أكتب إليها ولكن ليس من أجلكم وإنما من أجلها هي، ومن أجل دراستها العليا التي بدأتها بعد رحلة كفاح عظيمة، ومن أجل عملها المرموق الذي استحقته بتفوقها وإرادتها القوية. ثم من أجل هذه المولودة اليتيمة التي كانت تظللها بحبها ورعايتها كما اعتادت دائما أن تظلل الجميع بظلها كالشجرة الوارقة بغير انتظار لمقابل من أحد، ثم أيضا من أجل ابنها الأصغر الذي لم يعرف له أما سواها والذي أرجو أن يكون صغر سنه قد أعفاه من الاشتراك معكم في إيلامها والتآمر عليها.

نعم سأكتب لها لهذه الأسباب وحدها.. وأترك صدق ندمكم للأيام لكي تمتحنه وتختبر طواياه..

لقد وقعتم رسالتكم إليَّ بألقاب فخيمة رنانة: النقيب.. المهندس.. المحاسب إلخ فكيف تتفق هذه الألقاب المرموقة مع هذه الفظائع التي ارتكبتموها في حق شقيقتكم!

إن في الحياة دائماً نمطين من البشر أحدهما يعطي بلا حساب وبلا انتظار للمقابل، والآخر يأخذ ويجمع وقد لا يعطي من نفسه شيئًا، وشقيقتك يا سيدي من هذا النوع المعطاء المضحى الحريص دائماً على ألَّا يغضب أحدًا ولو على حساب نفسه.. لذلك قبلت وهي «الطفلة» أن تحرم من طفولتها ورعاية أبويها لتنتقل إلى بيتكم لتقوم بدور الأم لكم، وقبلت أن تتوقف عن دراستها لتتفرغ لرعايتكم وقبلت أن تتزوج قبل الالتحاق بالجامعة إرضاء لأبيها.. وقبلت بغير أن يدعوها أحد أن تحتضن طفلة شقيقها.

إنها رحلة تضحيات على طول الخط.. ورحلة عطاء على طول الخط، فماذا قدمتم لها مقابل كل هذا العطاء وهذه التضحيات؟

طالبتموها بالتنازل عن الميراث بلا أي مبرر مقبول.. ولم تخجلوا من مصارحتها بأسبابكم اللعينة لهذا التنازل.. وهي أنها مريضة ومحرومة من الإنجاب.. بل ولم تتورعوا عن التآمر مع زوجها ضدها.

فماذا كنتم تنتظرون منها بعد كل هذه «الدنايا»؟

لقد انهارت فجأة حين اكتشفت أنها وحيدة بين أعداء لم تأخذهم بها شفقة ولا رحمة، لا بين أهل وأبناء وأقارب أعطتهم الكثير من دمها وشبابها، وهي محقة في انهيارها، فلو اكتشف هرقل أن كل من حوله يتآمرون عليه لبكى وانهار.. لقد عانت حالة شديدة من الرثاء للنفس دفعتها للهروب من كل شيء.. من صحبتكم.. ومن المال الذي أفسد النفوس.. ومن العمل ومن كل شيء يذكرها بهذا الواقع المؤلم، وحتى حين أرادت أن تحتج جاء احتجاجها كعادتها سلبيًّا لا يؤذي أحدًا سواها لأنها غير قادرة على إيذاء الآخرين. فاختفت ضيقًا بكم وبالحياة.. وأنا أقدر دوافعها تمامًا لذلك وأعرف جيِّدًا أن:

وظلمُ ذوي القُرْبى أشدُّ مضاضةً على النَّفْسِ من وقعِ الحُسَامِ المهنَّدِ

لكني رغم ذلك سأخاطبها.. وسأقول لها إن لكل احتجاج مداه يا سيدتي، ولكل سفينة مرفأ لابد أن تؤوب إليه مهما كانت رحلتها عاصفة، لذلك فإني أدعوك لأن تستوعبي هذه المحنة.. وأن تتغلبي عليها كما تغلبت من قبل على كل شدائد الحياة وصعوباتها، التي واجهتك وادعوك لأن تتفهمي أسباب هذا الضعف البشرى الذي انتاب إخوتك تجاهك وتجاه مسألة الميراث.. وأن تعرفي أننا لا نعيش في الجنة التي تسمو فيها النفوس على هذه الصغائر، وإنما نعيش فوق أرض الخطايا المليئة بأمثال هذه النقائص وهذا الجحود.. لذلك لا أطالبك بالصفح عنهم.. وإنما أطالبك بألَّا تغلقي أبواب الصفح حين تطيب نفسك وتشفى جراحك..

وأدعوك إلى الاعتصام بنعمة النسيان التي لولاها لما صافحنا الكثيرين ممن بادرونا بالعداء، حتى قبل أن نقترب منهم أو من رشقوا الحراب في ظهورنا بلا أي مبرر.

وأنت سيدة عظيمة بكل معنى الكلمة، وقادرة دائمًا على إيجاد الحل المناسب لكل مشكلة تواجهينها.. والهروب ليس هو الحل الذي يليق بمن كانت لها مثل شخصيتك وإرادتك وخصائصك النفسية المتميزة.

فعودي يا سيدتي لعملك ودراستك وواجهي حقائق الحياة.. واختاري الحل الذي يلائمك لحياتك الزوجية.. وامتحني صدق ندم إخوتك وتوبتهم، ولا تهدري هذه المرحلة العظيمة من الحب والوفاء والعطاء.. والإرادة والتفوق.. بالاستسلام للهروب كسفينة بلا شراع تتخبطها الأمواج والأنواء والله معك..

عيون ساحرة

أكتب إليك لعلك تجد لي مخرجًا ممَّا أن فيه الآن، فأنا ياسيدي طالبة بالسنة النهائية في الجامعة الأمريكية، والابنة الوحيدة لأب يشغل مركزًا خطيرًا ولأم من سيدات المجتمع ذوات النشاطات المتعددة، ولك أن تتخيل ما أعيش فيه من حياة مرفهة سهلة يحلم البعض بأن يعيش إحدى صورها.. وقد حباني الله جمالًا أضفى على حياتي الكثير.. ولم يدع لي مجالًا لأي شكوى..

وأنا طالبة مجتهدة أؤدي واجباتي.. وأقرأ وأسمع الموسيقى.. وأذهب إلى النادي.. ومظهري دائمًا محترم.. لكني من هؤلاء الأشخاص الذين لا يمنحون صداقتهم للآخرين بسهولة.. مما قد يفسره البعض بأنه تكبر.. لكنه في الحقيقة ليس كذلك، وإنما هو عزوف عن التعرف إلى الآخرين حتى يثبت الآخرون جدارتهم بالصداقة.. وقد عشت حياتي كلها بلا مشاكل من أي نوع.. تربطني بأبي وأمي علاقة كلها حب واحترام وثقة، فهما يثقان في أخلاقي وحسن تصرفي.. وأنا أبادلهما حبًّا عميقًا وإعجابًا بشخصيتيهما.

وذات يوم ذهبت إلى النادي.. فإذا بي أرى وأنا أدخل إليه وجها لم أر من قبل مثل وسامته وعينين تنظران إليَّ.. يشع منهما بريق أخاذ عجيب، لم أستطع وأنا

المتحفظة النافرة من الغرباء أن أقاومه، فوجدتني أجلس إلى مائدة تواجه هذا الإنسان ذا العيون الساحرة.. ثم وبغير أن أقاوم.. أبتسم له كأني أدعوه للتعرف إليَّ واكتساب صداقتي، فإذا به لا يرد على ابتسامتي.. ولا يبدو عليه أي اهتمام بي.. فشعرت بشيء من الضيق والخجل.. وصرفت تفكيري عنه.. وتشاغلت عنه بالقراءة لكن.. وجدتني مرة أخرى أنظر إليه مشدوهة بوسامته وببريق عينيه الأخاذ.. ووجدتني بغير أن أشعر ابتسم له مرة أخرى ففوجئت به لا يرد ابتسامتي مرة أخرى.. وشعرت بالمهانة.. وكدت أغادر النادي غاضبة حين رأيت هذا الشاب الوسيم ينهض ثم يتحسس طريقه بعصاه إلى خارج النادي.. يا إلهي إن عينيه الساحرتين اللتين أخرجتاني من تحفظي.. لا تريان!.. إنه محروم من نعمة البصر.. إن هذه الوسامة كلها ينقصها البصر ولم أتردد.. فسعيت للتعرف به.. وتعرفت به وأحببته حبًّا كما لم يحب أحد أحدًا من قبل.. وقابل هو حبي له بحب عظيم واحترام كبير لي، وعرفت عنه كل شيء.. إنه شاب من أسرة بسيطة يحمل مؤهلًا جامعيًّا ويعمل بأحد مراكز المكفوفين ويعد رسالته للماجستير.. وأسرتني شخصيته الساحرة التي لم أصادف مثلها من قبل.. إنه إنسان عظيم بكل معنى الكلمة.. مريح وهادئ وعطوف ومعه أشعر بالأمان وبالراحة وبأن للحياة قيمة ومعنى.

وكان طبيعيًّا أن يعرض عليَّ الزواج ووجدتني أوافق بكل كياني ويومها طرت بعد هذا الحديث إلى البيت بجناحين من السعادة لأقص على أمي كل شيء.. لم أكن أخشى معارضتها أو معارضة أبي للزواج من شاب من أسرة بسيطة لأنهما متفتحان ويحترمان البشر ويقدران ظروف الآخرين.. ولا يعطيان للمال قيمة كبيرة في الحياة، لذلك تدفقت في الحديث أروي لأمي كل التفاصيل منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها جالسًا على مائدة قريبة من مدخل النادي، وهي تسمع لي مبتسمة

وراضية وسعيدة.. إلى أن وصلت إلى اللحظة الحرجة.. فإذا بها تصرخ صرخة هائلة.. «أعماااااه» «أعماااااه» وتردد هذه الكلمة الكريهة «أعمى» بهستيرية ودون أن تشعر أكثر من مرة، فجاء أبي منزعجًا على صوت أمي وجاء ضيوفه متوقعين حدوث مصيبة بسبب صرخات أمي، وسرعان ما انضم صوت أبي بعد أن عرف الموقف إلى صوت أمي كأن هذه الصفة «عار» على صاحبها.. وليست من عند الله، وتحول الصراخ بعد لحظات إلى وعيد وتهديد بضرورة قطع كل صلة لي بهذا الشاب وإلَّا فإن أبي قادر على تشريده وتحطيم مستقبله.

كل هذا بغير أن يروه ويحكموا على أخلاقه التي لا يتحلى بها كثير من المبصرين.. وبغير أن يقدروا له إرادته التي لا تتوافر للكثيرين، وفشلت كل محاولاتي يا سيدي في إقناع أبي وأمي به.. وفشلت محاولات من أثق فيهم لإقناعهما.. ولم يقابل حديثي عنه وعن أمثاله الذين شقوا طريقهم في الحياة وأصبحوا من العظماء سوى بالسخرية الشديدة منهما.. فماذنبي ياسيدي في أنني أحببته.. وماذنبه في أن الله جل شأنه قد جعله هكذا، إنني أنا التي تحتاج إليه وليس هو.. وأعرف تماما أنني لو تركته سوف تتحطم حياتي أكثر مما سوف تنهار أحلامه.. فأرجوك أن تكتب لأبي ولأمي من خلال بريدك الذي يتابعانه لكي تنقذني مما أنا فيه وشكرًا لك.

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إن مشكلتك هي إحدى المشاكل القليلة التي يصعب على المرء أن يحكم فيها بسهولة بخطأ موقفِ طرفٍ فيها وصواب موقف طرف آخر!

لأن أطراف المشكلة على حق في مواقفهم.. ولكن من منظور كل منهم الخاص للمشكلة! فأنت على حق في أن تحلمي بالزواج ممن اختاره قلبك وكان بالمصادفة محرومًا من نعمة البصر، وهو على حق في أن يحلم بالزواج منك بعد أن بادلك حبا بحب.. ووضعتك الأقدار في طريقه بلا إرادة من جانبه.

وأبواك على حق أيضًا في أن يطلبا لك الأكمل والأمثل بالمقاييس المتعارف عليها.

وهكذا فأنتم جميعًا على حق.. وأنا حائر حقًّا بينكم!

لقد ذكرتني كلماتك التي حذفتها من رسالتك عن «إعجاب» أبويك بآرائي وأملك في أن يغيرا موقفهما إذا أقتنعا برأيي، بالاختيار الصعب الذي أجد نفسي أمامه دائمًا في مثل هذه المواقف بين «الإعجاب» وبين «المصادمة» بما يتناقض معه من آراء! لكنني لا أتردد عادة في الاختيار.. متذكرًا دائمًا كلمة أرسطو الشهيرة «أفلاطون صديقي وأستاذي لكن الحق أولى بصداقتي من أفلاطون».. ولأن الأمر كذلك فإني أقول إنني أقدر لأبويك مشاعرهما ورغبتهما المخلصة في إسعادك.. وأحترم بشدة موقفهما الاجتماعي المتنور الذي لا يعطي للمال أهمية كبيرة في تقييم الآخرين.. لكنني أجد نفسي رغم ذلك مضطرا إلى سؤالهما نفس السؤال «المحرج» الذي أسأله دائمًا لمن يستشيرونني في ظروف مماثلة لهذه القصة وهو: أننا نقبل ونرفض الأشياء من موقفنا نحن إزاءها.. لكن ترى كيف يكون تصرفنا لو وضعتنا الأقدار في الجانب الآخر من نفس المشكلة، ترى أيكون موقفنا هو نفسه الآن؟ أم أن اعتبارات جديدة سوف تطرأ عليه: إذن ترى ماذا يكون موقفكما لو كان هذا الشاب الوسيم الذي حرمته الأقدار من نعمة البصر هو ابنكما الذي يرفضه الآخرون رغم جدارته لهذا السبب وحده؟ وكم من المرارة والظلم سوف تشعران بهما.. وابنكما «يحاسب» على شيء لا يتمناه لنفسه.. ولم يرده لها؟

ثم من الذي أفتى بأن السعادة لها مواصفات جسمية لابد من توافرها في البشر لكي نسعد معهم.. أو نشقى بهم؛ إذا لم تتوافر فيهم؟ إنكما تعرفان جيِّدًا أن السعادة لا ترتبط بوسامة.. ولا بحواس الإنسان الخمس.. ولا بمنصبه أو مركزه الاجتماعي.. ولا بأي شيء آخر سوى روحه وشخصيته وخلقه.. وما ينطوي عليه صدره من مشاعر وأحاسيس.

ولست في حاجة لأن أردد عليكما عشرات الأمثلة لأزواج وزوجات كانوا نعم الشريك والرفيق للآخر، رغم الحرمان من إحدى الحواس.. لكني سأقول لكما فقط إنه لا أحد يستطيع أن يجزم بأنه يعرف لابنه أو ابنته طريق السعادة الذي لا مدخل إليها سواه.. إن من حقنا بالفعل أن نطلب لأبنائنا السعادة كما نتصورها وأن نساعدهم بالرأي والمشورة على تجنب الشقاء، لكننا في النهاية لا نملك سوى النصيحة وسوى إضاءة الطريق لهم ليتبينوا المهالك والمخاطر فيه ويحاولوا تجنبها.. أما الاختيار فلسوف يبقى في النهاية لهم، فإن كنا نملك لهم شيئًا.. فهو أن نسعى بكل جهدنا إلى إقناعهم بعدم ممارسة هذا الحق قبل أن يتوافر لهم النضج والخبرة التي تعينهما على حسن الاختيار.

إنني لا أطالب أبويك بتغيير موقفهما الآن.. لكني أطالبهما بألَّا يصدرا حكمهما النهائي إلَّا بعد الالتقاء بهذا الشاب والتعرف إليه جيِّدًا ودراسة شخصيته وأخلاقه، وأطالبهما أيضا بألَّا يغلقا باب مناقشة القضية نهائيًّا.. وأن يكونا مرنين وعلى الاستعداد لأن يغيرا موقفهما إذا اقتنعا فيما بعد بأنه لا سعادة لك فعلًا إلَّا مع هذا الشاب.

ولا أطالبك أنت أيضًا بتغيير موقفك الآن.. لكني أطالبك بالصبر وبعدم التعجل، وبالتأكد أولًا من صدق مشاعرك، ومن أنك لا تعيشين تجربة عابرة

استهوتك فيها، وسامة هذا الشاب أو عيونه الساحرة أو غرابة الظروف التي التقيتما فيها، وإنما تعيشين حب العمر الذي لن يكون للحياة معنى بغيره، والذي يستحق بالفعل أن يشقى الإنسان للدفاع عنه وحراسته!

وسوف تختبر الأيام عمق التجربة كلها لأنها هي الفيصل الوحيد في مثل هذه التجارب.. فإذا أكدت لك الأيام ثبات مشاعرك فثقي من أن أبويك سوف يغيران موقفهما لسبب بسيط هو أنهما أصلًا منحازان إلى صفك في القصة كلها.

فواصلي الكفاح معهما لكي تصلوا معًا إلى نقطة التقاء، ولا تفقدي الأمل أبدًا في نيل رضاهما عن اختيارك مهما طالت الأيام فقديما قال المتنبي:

«على قدر أهل العزام تأتي العزائم».

ولسوف تأتي بكل تأكيد.. بشرط أن نكافح للوصول إليها وأن نثبت جدارتنا بها!

العار

أنا فتاة في الرابعة والعشرين من عمري، حاصلة على مؤهل جامعي وكبرى إخوتي البنات، وأبي يا سيدي رجل شديد الصرامة.. ولم يكن يريد أن تكون له ذرية من البنات فأعطاه الله صحبة من البنات هن أنا وشقيقاتي، لذلك فقد كان شديد القسوة في معاملته لنا.. فلم يكن يجالسنا أو يتحدث إلينا أو يستمع إلى مشاكلنا، فبث في نفوسنا منذ طفولتنا الخوف والهلع منه، حتى أنني كنت أخاف الجلوس في المكان الذي يجلس فيه.. ولم أطلب منه أبدًا أنا وإخوتي أي طلب مباشرة، بل كنا نتقدم إليه بطلباتنا عن طريق وسيط «دولي» هو والدتنا.

وهكذا عشنا طفولتنا وصبانا.. فنشأت أرتعب منه، وحريتنا جميعًا مقيدة حتى داخل البيت، واستمرت الحال هكذا إلى أن اجتزت امتحان الثانوية العامة ونجحت بمجموع أهلني لدخول كلية نظرية، وهناك رأيته.. كان طالبًا في نفس القسم يتقدمني بسنة جامعية ويكبرني بسنة واحدة في العمر.. وتعارفنا عن طريق صديقة.. واعترف بحبه لي واعترفت له على الفور وباندفاع غريب بحبي له من أعماق قلبي، لأني وجدت فيه ما أفتقده في أسرتي من روح الحنان والترابط، وخلال وقت قصير أصبح بالنسبة لي الهواء الذي أتنفسه، ووعدني بأن يتقدم لخطبتي فور

انتهاء دراسته الجامعية، فنسيت تقاليد مجتمعنا والمبادئ التي نشأت عليها.. وتناسيت خوفي أو رعبي من أبي، وأصبحت ألتقي به أمام أعين الناس، وعلم الجميع بعلاقتنا فلم أهتم لثقتي فيه وفي صدق وعده لي، ورسب هو عامًا فتساوينا في السنة الدراسية، وأصبح معي في دفعتي يجلس بجواري في كل محاضرة، ونذهب إلى الكلية معًا ونعود معًا، ثم جاء عام آخر لنا في الكلية رسب هو فيه ونجحت أنا.. ولا تتصور ماذا حدث لي لحظة سماعي بالنتيجة، فلقد انهرت وقررت عدم دخول مادة التخلف من السنة السابقة، ونفذت ما قررته ولم أدخل امتحان مادة التخلف «سرًّا» بالطبع لكيلا أنتقل إلى السنة التالية ونبتعد عن بعضنا، وفعلًا أعدت سنة طويلة عريضة من أجل مادة واحدة.. أو من أجله هو على وجه التحديد.. لكيلا ننفصل ولكيلا يشعر هو بغضاضة لأني أسبقه في الدراسة.

ومر العام ونجحنا معًا، وانتهت سنوات الدراسة بالجامعة لكن علاقتنا لم تنته، وعلم والدي بها عن طريق أحد الأصدقاء، ولم يصدق إلى أن رآنا في إحدى المرات نمشي معًا فكان يوم الفزع الأكبر، كما يقولون، ولا أريد أن أصف لك ما جرى لي من أهوال وضرب وسب وحبس مطلق في البيت وحرمان من المصروف، وظللت سجينة البيت، حتى جاء زميلي إلى أبي ليخطبني منه، لكنه جاء وحده لمرض أمه وطلب من أبي مهلة أسبوعين إلى أن تشفى لكي تحضر معه لخطبتي.. ولأول مرة منذ عرفته ساورني الشك قليلًا في ذلك.. لكني تأكدت فعلًا من مرض أمه.. وانتظرنا شفاءها لنبدأ الإجراءات.. وخفت قبضة أبي عني قليلًا خلال هذه المهلة فسمح لي بالخروج لزيارة صديقاتي..

وذهبت لأزور إحدى صديقاتي التي كانت علاقتي بها مستمرة خلال السنوات الخمس الأخيرة.. وجلسنا في غرفتها تسألني عن أخباري.. وأروي لها

تفاصيل أيام السجن في البيت، وما نالني من ضرب وإيذاء وإهانات.. وكيف جاء خطيبي ليخطبني وماذا قال لأبي وماذا قال له أبي.. وهي تسمع لي بشغف لأنها عاصرت القصة من بدايتها وأنا أحكي لها باهتمام.. ثم تركتني في الحجرة لتحضر لي شيئًا أشربه، ووجدت نفسي وحيدة في انتظارها فرأيت في لحظة مشئومة علبة مصوغاتها موضوعة أمامي على المكتب في مكانها المعتاد، الذي تعودت أن أراها فيه دون أن ألقي إليها بالًا. «ودون أن أشعر بشيء» وجدت نفسي أقدم وأفتح العلبة وأخرج منها إحدى مصوغاتها وأخفيها في حقيبة يدي، وعادت صديقتي وقدمت لي المشروب فشربته وأكملت جلستي معها دون أن تشعر بشيء وودعتها وانصرفت..

وعدت إلى بيتي وأمضيت وقتي أتفرج على التليفزيون وأتحدث مع شقيقاتي وأمي وأنا سعيدة..

وصباح اليوم التالي كنا مشغولين في أعمال البيت حين سمعنا طرقات شديدة على باب الشقة فانزعجنا، وأسرعت إحدى شقيقاتي تفتح الباب فإذا بعشرة من الرجال الأشداء يملأون صالة البيت ورئيسهم ينطق بصوت غليظ بالكلمة البغيضة التي كنت أتمنى أن تبلعني الأرض قبل أن أسمعها في بيتنا: «بوليس»!

مين فيكو فلانة!

وانهرت وانهارت أمي وشقيقاتي.. وكان يومًا أسود لن أنساه طوال حياتي، وعرفت أن صديقتي اكتشفت سرقة قطعة المصوغات بعد انصرافي، فأبلغت الشرطة واتهمتني لأنه لم يزرها غيري، وانهرت أمام وكيل النيابة واعترفت بفعلتي هذه وأنا في غير وعيي. وانهار أبي لأن هذه هي أول مرة نتعرض فيها لموقف كهذا،

وراعى وكيل النيابة ظروفي ونصخ أبي بعلاجي نفسيًّا، وأصطحبني أبي إلى أحد الأطباء النفسيين ورويت له ما حدث، فقال لي إني مريضة بمرض السرقة غير الإرادية، وأحمد الله على أن أبي قد لحقني في بوادرها وبالعلاج تنتهي إن شاء الله.

وطبعا أخفيت هذه المصيبة كلها عن خطيبي لكنه علم بها.. بعد أن عرف واجهني وقال لي إنه يعلم جيِّدا أنني لست لصة، وأنه مازال يحبني ويريدني زوجة له، لكن المشكلة هي أن أهله قد عرفوا بهذه الفضيحة وأنه أصبح في موقف صعب جدًّا، لأنه لا يريد أن يخسرني ويكسب أهله ولا يريد أن يكسبني ويخسر أهله.. وأهله قد رفضوا الآن اقترانه بي بعدما حدث منِّي، بل إن والدته أخذت تحكي لكل من تراه عما بدر مني، وتشنع بي وتفضح أمري دون أي أعذار.. فماذا أفعل ياسيدي! لقد جنيت على نفسي وعلى حبي دون إرادتي ودون أن أشعر، وأشعر أنه لا معنى لوجودي.. نظرات من يعرفون ما جرى تقتلني كثيرون ممن عرفوا أصابتهم الدهشة مما سمعوا لأنني من عائلة مستورة، وألبس الكثير من الحلي ولا ينقصني شيء.. لكن ماذا أقول! إنه قدري! لقد أخطأت خطأً غير مقصود ولا أدري ماذا أفعل؟! لقد طلب مني خطيبي أن أحل هذه المشكلة التي وقعنا فيها حلا يرضي الطرفين.. ويسألني لماذا فعلت ما فعلت؟ وأنا لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت.. فانجدني يا سيدي ماذا أفعل لكي أعيد ثقة الناس بي؟ وماذا أفعل لكي أحقق حلم حياتي وأتزوج بمن أحببته وملك كل كياني؟ إن كل إنسان معرض للخطأ والله غفور رحيم.. فلا تقل لي إنسه لأني لا أستطيع.. وارشدني إلى ما أفعل.. وانشر رسالتي لتقرأها كل فتاة وتتعلم من تجربتي!

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الحق أن رسالتك فيها الكثير مما ينبغي أن تتعلمه الفتيات، والأمهات والآباء أيضًا!

فلقد لفت نظري بشدة في رسالتك وصفك لجو الرعب الذي كنت تعيشين فيه مع إخوتك خلال طفولتك وصباك، وغياب العلاقة السوية بين الأب وبينك، وافتقادك للترابط الأسري، لذلك لم «أدهش» كثيرًا لاندفاعك في علاقتك بزميلك حين تخففت من آثار الرعب وانتقلت إلى الجامعة.. لأن الكبت الشديد يولد الانفجار، ولأن المغالاة في الشدة بلا حكمة وبلا محاولة للفهم أو التعويض النفسي من جانب الأب والأم، لابد أن تخلق في النهاية الشعور بافتقاد الأمان الذي يقود الأبناء إلى محاولة التماسه لدى الآخرين.

كما لم أتعجب كثيرًا أيضا لتعمدك الرسوب لمدة سنة دراسية كاملة لكيلا تنفصلي عن فتاك، وحتى لا يشعر بغضاضة لتخلفه عنك! لأن هذا التصرف بالرغم من أنه في أحد وجوهه تعبير غير عاقل عن تمسكك بفتاك، فإنه من وجه آخر يعكس رغبة كامنة داخلك في تحدي إرادة أبيك الذي يريد لك ككل أب أن تنتهي من دراستك الجامعية اليوم قبل الغد!

هذه هي بذرة الخلل الأساسي التي قادتك فيما بعد إلى الموقف العصيب الذي تواجهينه الآن.

إنني أعترف بأنني لست من المتحمسين للتفسير «الفرويدي» لحكاية السرقة اللاإرادية أو «الكلبتومانيا» التي يحلو للبعض أن يفسروا بها جرائمهم، وبأنني أؤمن بأن السرقة في النهاية هي عمل إرادي يقترفه المرء وهو واع تمامًا لما يفعل، لكنه من الجائز أن تكون له، وفي أحيان نادرة، دوافع نفسية أخرى على خلاف دوافع السرقة التقليدية، لذلك فهو عمل مسئول يسأل عنه مرتكبه ويعاقبه عليه المجتمع.. لأنه لا يسرق وهو مسلوب الإرادة أو وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسي، وإنما يسرق إرضاء لدوافع خاصة لديه.. ورغم تحفظاتي هذه فإن حالتك يمكن أن تكون تطبيقًا مثاليًّا للسرقة بسبب دوافع نفسية غير تقليدية، لأن كتب علم النفس تقول بالحرف الواحد إنه في هذا النوع من السرقة، فإن سرقة الشيء هي رمز للإعزاز المفتقد وللصفح الذي لم يمنح، وأن الهدف من فعل السرقة هو استعادة الشخص لشعوره بالأمن واحترام الذات! وأن في ارتكاب الشخص لشيء خلسة آثارة عنده تصل إلى مستوى إثارة النشوة، وأنت قد سرقت لكل هذه الدوافع مجتمعة التي تفتقدينها فعلًا، بغض النظر عمن يعد مسئولًا عن ذلك أهو أبوك وحده.. أم أنت أيضا باندفاعك في قصتك الغرامية إلى ماوراء الحدود بغير ترو.. أو لأنك فيما يبدو قد أهملت الوازع الديني في حياتك.. فلم يعد يلعب دورًا أساسيًّا يردك فيه عن بعض المهالك، لقد انتقمت مما أصابك من أبيك عقب ضبطه لك مع فتاك انتقامًا رهيبًا يا آنستي بهذه الفعلة الشائنة، ونسيت أنك تدمرين به أيضًا نفسك وحبك وحياتك وشخصيتك والآن تسألينني، ماذا تفعلين لإستعادة ثقة الناس بك.. ولكي تتزوجي من فتاك الذي خضت معه هذه التجربة الطويلة.

وجوابي هو أن الإنسان يبني ثقة الآخرين به خلال سنوات طويلة ومن خلال اختبارات ومواقف عديدة.. لكنه للأسف يمكن أن يفقدها في لحظة واحدة بفعل

طائش.. أو تصرف أحمق، فإذا أراد أن يستعيدها من جديد فإنه يحتاج إلى سنوات أخرى من العناد والصبر لكي يعيد بناءها من جديد.

وهذا ما ينبغي أن تعرفيه جيِّدًا!

إن أمامك كفاحًا طويلًا وصبرًا أطول لكي تستعيدي ثقة الآخرين بك، فإذا كان الإنسان العادي مطالبًا في حياته الخاصة بحسن السيرة لكي يفوز بثقة الآخرين واحترامهم، فإن صاحب البقعة السوداء في الثوب الأبيض يحتاج إلى ما هو أكثر من حسن السيرة، لأنه يحتاج إلى التطهير بل والتزمت لكي يطهِّر ثوبه من أدرانه، وليس من حقنا في النهاية أن نغضب من الآخرين لأنهم يتحدثون بنقائصنا ويسفهون علينا، وإنما علينا أن نغضب من أنفسنا لأن لنا نقائص يستطيع الآخرون أن يتحدثوا بها!

بهذا المنطق عليك أن تواجهي الحياة فتفوزي باستعادة ثقة الآخرين وباحترامهم.. وبسعادتك أيضًا إن شاء الله.

ثمرة الحب

أكتب إليك هذه الرسالة بعد أن قرأت رسالة الطبيب التي نشرت بعنوان «إلا قليلًا» ويروي فيها كاتبها قصة رحلته من الأمية وهو في سن الصبا يتفرج على كتبة الجمعية التعاونية، وهم يسجلون الأرقام والأسماء ويعتبرهم سحرة يأتون الأعاجيب، إلى أن حصل على بكالوريوس الطب وأحزنه أن أفلتت منه فرصة الحصول على تقدير جيِّد جدًّا ويشكو لك همه جراء ذلك.

والحق أن هذه الرسالة قد دفعتني لأن أروي لك ولكاتب الرسالة الأولى قصتي مع الحياة، فأنا يا سيدي شاب في الواحدة والثلاثين، نشأت في قرية صغيرة بدمياط فوجدت نفسي أعيش مع أبوين مسنين أنجباني بعد فترة طويلة من الانقطاع، فكنت طفلًا وحيدًا في بيتهما الريفي البسيط، ولي أخ وأخت قد غادرا البيت وتزوجا وأنجبا أطفالًا في مثل سني، وكان أبي مزارعًا بسيطًا فلم يستطع أن يوفر لي إمكانيات التعليم، فتوقفت عن الذهاب إلى المدرسة بعد السنة الرابعة الابتدائية، لأني كما يقال لأمثالنا من البسطاء في مثل هذه الظروف القاسية. قد أصبحت رجلًا وعلي أن أخرج للعمل وأكسب قوتي بنفسي، فدفع بي أبي إلى محل حلاق القرية فعملت صبيًّا به أتقاضى كل يوم خميس خمسين قرشًا كاملة! ولم أكن

قد تعلمت في المدرسة شيئًا كثيرًا فكنت لا أكاد أعرف القراءة والكتابة وواصلت العمل حتى بلغت سن الثامنة عشرة، فراودني فجأة حلم التعليم، وفجره في داخلي ما كنت أشاهده في تمثيليات التليفزيون من سخرية مريرة بحلاق القرية، فأردت ألَّا أعيش حياتي كلها داخل جدران محل متواضع للحلاقة بإحدى القرى، فاشتريت كتابًا خارجيًّا لدروس الشهادة الابتدائية، ورحت اقرأه بصعوبة شديدة، وأستعين بشبان القرية المتعلمين على استيعابه حتى التهمته التهامًا خلال شهور الصيف، ثم قرأته مرة ثانية وثالثة ورابعة وقررت دخول امتحان الابتدائية من الخارج، ودخلته بالفعل وحصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع 75%، وفي العام التالي دخلت امتحان السنة الأولى الإعدادية ونجحت فيه ثم امتحان السنة الثانية ونجحت أيضًا.. وبلغت سن التجنيد فجندت وفي وحدتي العسكرية استدعاني القائد حين عرف بقصتي لقص شعره.. ثم أرشدني إلى كيفية الالتحاق بمدارس التحرير العسكرية، فالتحقت بها وحصلت منها على الشهادة الإعدادية، ثم نجحت في السنة الأولى الثانوية والسنة الثانية وانتهى تجنيدي فخرجت إلى الحياة وليس معي من المدخرات سوى مكافأة نهاية الخدمة وهي عشرون جنيهًا، فعملت لفترة في إحدى شركات المقاولات بالقاهرة واستطعت أن أدخر خمسين جنيهًا، وبدلا من أن أستمر اتخذت أصعب قرار في حياتي، وهو أن أتوقف عن العمل وأن أعود إلى بلدتي ومعي كل ما أملك من حطام الدنيا وهو سبعون جنيها، لكي أواصل رحلة التعليم، فعدت إليها وعمري 24 سنة، ودفعت من «رأس مالي» عشرين جنيها رسوما للالتحاق بفصول الخدمات في مدرسة مدينة صغيرة مجاورة، وقررت أن أتفرغ عامًا كاملًا للحصول على الثانوية العامة، أعيش خلاله على ما تبقى معي من المال، وذهبت إلى المدرسة لأول مرة فالتف حولي الطلبة مرحبين وهم يظنونني مدرسًا جديدًا، ثم تكشفت الحقيقة فشجعني كثيرون منهم وكان في المدرسة عدد

من المدرسين من أبناء قريتي فأوصوا بي زملاءهم، فسمحوا لي بحضور فصولهم النظامية لأني كنت شديد الحاجة إلى المساعدة في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ولا أقدر طبعا على نفقات الدروس الخصوصية، فأصبحت أمضي نهاري كله داخل جدران المدرسة، أحضر حصص اللغتين الأجنبيتين كلها في كل الفصول، وأطوف وراء مدرسيها من فصل إلى فصل فأحضر الدرس الواحد عدة مرات، ثم ينتهي اليوم النظامي وتبدأ دروس فصول الخدمات فأحضرها جميعًا، ثم أعود إلى بيتي في القرية لأستذكر دروسي حتى وقت متأخر من الليل، إلى أن انتهى العام الدراسي وتقدمت للامتحان وانتظرت النتيجة بقلب مرتجف ففوجئت بنجاحي بمجموعي 57%، فازددت إصرارًا على أن أواصل الطريق إلى النهاية، وكانت نقودي قد نفدت بعد أن عشت عامًا طويلًا بخمسين جنيهًا فقط، لا أعرف حتى الآن كيف سدت رمقي ولبت احتياجاتي، وكان أبي قد رحل منذ فترة عن دنيانا ففتحت محلًا صغيرًا للحلاقة في قريتي، وانتسبت إلى كلية التجارة بجامعة الزقازيق، ونظمت حياتي بحيث أعمل أسبوعا في محلي الصغير أجمع خلاله ما يكفي لتلبية احتياجاتي واحتياجات أمي من القوت الضروري، ثم انطلق إلى مدينة الزقازيق أحضر المحاضرات وأذاكر وأعيش حياة طالب الجامعة لمدة أسبوع آخر وهكذا.

لكن المحل الصغير لم يصمد لهذا النظام فتراكم عليَّ إيجاره المتأخر واسترده صاحبه فقررت السفر إلى العراق للعمل خلال شهور الصيف، وظهرت النتيجة ونجحت في السنة الأولى، فركبت الطائرة إلى هناك وعملت حلاقًا في أحد محلات بغداد لمدة أربعة شهور بنظام نصف الإيراد، فأعمل طوال النهار وحدي في المحل، ثم يجيء صاحبه في المساء فأحصي الإيراد واقتسمه معه.. وكان سعيدًا بي

وبأمانتي.. وحزن حين غادرته بعد 4 شهور وعدت إلى مصر ومعي ألف جنيه لأواصل الدراسة وتفرغت لدروسي حتى جاء الصيف، فسافرت مرة أخرى واستمرت الحال هكذا طوال سنوات الجامعة حتى حصلت على البكالوريوس وعمري ثلاثون عامًا، ولم أرسب خلال رحلتي سوى مرة واحدة في السنة الثالثة بكلية التجارة لقسوة ظروفي فيها لكنها كانت كبوة لم تتكرر أبدًا.

وفي الشهور الأخيرة من دراستي الجامعية ذهبت لزيارة بعض أقاربي فالتقيت بفتاة من قريباتي تدرس في السنة الثانية بكلية آداب عين شمس، لم أكن رأيتها من قبل فأحسست للوهلة الأولى بأن خيطًا ما يربطني بها، وكانت تعرف قصة كفاحي مع التعليم ومع الحياة، فأبدت إعجابها بتصميمي على التعليم فترددت على بيت الأسرة أكثر من مرة لرؤيتها والتحدث معها وتقاربنا كثيرًا، وتعاهدنا على الزواج وعندما حصلت على شهادة البكالوريوس تقدمت لخطبتها وعقدنا القران بعد قليل، وبدأت مرحلة جديدة من كفاحي لتكوين عش الزوجية. وكنت قد جمعت من سفري كل صيف مبلغ ألفي جنيه، فدفعتها كجزء من مقدم الإيجار لشقة في القاهرة، وعدت للسفر فعملت عدة شهور وتسلمناها وأثثناها بالتقسيط، وتزوجنا واكتشفت أني قد حصلت على شهادتي في وقت لم تعد هناك قيمة فيه للشهادة الجامعية، فخرجت أطلب العمل في محلات القاهرة ووجدته بسهولة، وأنا الآن أعمل في أحد المحلات بأجر قدره 8 جنيهات في اليوم، وأحصل على دخل شهري لا يقل عن 300 جنيه، وزوجتي راضية عن حياتنا وعن عملي بل وفخورة به وبي وبكفاحي، لكني لم أتخلص بعد من نفوري القديم من المهنة الذي غرسته في نفسي سخرية التليفزيون والسينما من حلاق القرية.

وأشعر أحيانًا أني سرت في طريق مسدود حين أصررت على التعليم وضحيت بعملي في الخارج من أجله، لكن زوجتي لا تشاركني هذا النفور، ولا ترى في

الوظيفة أملًا يستحق المعاناة أو يستحق أن يفسد سعادتنا فهي راضية بي هكذا.. وتريدني ألَّا أشقى بوضعي كحلاق جامعي، وأن أبتسم للحياة، وكلامها يخفف عني الكثير ونفسها الراضية وقلبها الذي لا يشع إلَّا الحب يشعرانني أحيانا أني ملك ولست حلاقًا بالأجر، وقد حملت زوجتي ونستعد الآن لاستقبال جنين الحب الذي جمع بيننا، وحين أعود إلى عشنا الصغير بعد يوم طويل أمضيته واقفًا على قدمي أحس بالأمان يغمر روحي وبنسائم الحب تحلق في سماء مسكني الصغير، وأشعر بالراحة بعد العناء. لكن قاتل الله القلق فأنا قلق على مستقبلي وأتمنى لو استطعت أن أجد وظيفة أؤمن بها أيامي القادمة إلى جانب فني ومهنتني، لأن مهنتنا لا قلب لها والازدهار فيها مرتبط بالسن والشباب، فالشباب يقبلون عليَّ الآن لكنهم حين أتقدم في العمر سأصبح بالنسبة لهم موضة قديمة، وربما لن أجد من يستخدمني فماذا تقول لي.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إنك «ملك» فعلًا لا مجازًا، لأنك تملك الحب الصادق الحقيقي وتتنفس نسائمه مع شريكة حياة محبة راضية فخورة بك في كل الأحوال، وتستعد لاستقبال ثمرة الحب التي ستخرج إلى الحياة بعد قليل فتكتمل بها سعادتكما. وأنت «ملك» أيضا لأنك تملك إرادتك القوية التي استطعت أن تنتشل نفسك بها من ظلام الأمية إلى ضياء العلم، وتمكنت بها أن تبني لنفسك عُشًّا صغيرًا جميلًا بلا سند من أحد سوى

كفاحك وصلابتك، فلماذا تفسد أيامك السعيدة هذه بالرثاء لنفسك؟ لأنك لم تجد وظيفة بمؤهلك الجامعي، ولم يمض علي تخرجك سوى شهور، وأنت في مجتمع يطول فيه انتظار الخريجين لفرصة العمل بالسنوات، فإذا جاءتهم عجزت غالبًا عن تحقيق أحلامهم في المسكن والزواج، ولماذا نشقى غالبًا للوصول إلى ما كان يبدو لنا مستحيلًا؟ فإذا ما بلغناه زهدناه واستصغرنا شأنه وشقينا بالتطلع إلى أهداف بعيدة أخرى؟

ثم ما معنى الأمان الذي تبحث عنه وأنت تملك فنًّا تجيده وتستطيع أن تستثمره خلال فترة قصيرة أخرى في مشروع خاص؟ تكون فيه سيد نفسك وتحقق من ورائه كل ما تطمح إليه من أمان واستقرار.

يا صديقي إن الوظيفة في بلادنا لم تعد غالبًا مصدرًا للأمان ولا للوجاهة الاجتماعية، بل إن السخرية المريرة التي كنت تشكو منها لم تعد تتجه الآن إلى مهنة بعينها في مجتمعنا أكثر مما تتجه إلى الوظيفة والموظفين بغض النظر عن أخلاقية السخرية من أي عمل شريف مهما كان وضعه.

وفي بلادنا الآن نظم للتأمينات الاجتماعية لأصحاب الأعمال الحرة تبطل حجة الأمان الذي كانت تمثله الوظيفة.. لهذا فإني أتفق مع زوجتك في عدم احتفائها بأمر الوظيفة وأراها في هذه النقطة أكثر تقدمية منك. وأقل تأثرًا بهذه الرواسب الاجتماعية القديمة التي مازالت تؤثر فيك، وتدفعك للنفور من فنك ومهنتك الشريفة. ورغم ذلك فإذا كنت تبحث عن «لقب» فلا بأس إذا سمحت لك الظروف بالعثور على وظيفة بأن تعمل بها ساعات الصباح، على أن تستكمل باقي متطلبات حياتك من العمل الحقيقي الذي تمارسه الآن، والذي ستعرف قيمته أكثر إذا عثرت على وظيفة لن تقدم لك ربع الدخل الذي تحققه الآن، وإن كنت في

رأيي لست في حاجة إلى هذا «اللقب» الذي لم يعد يمثل شيئًا، لأنك حملت بالفعل لقبًا اسمي منه حين حققت بكفاحك ملحمة تعليمك، وحين وفقك الله إلى هذه الشريكة الفاضلة.. وحين نجحت في بناء عشك الصغير الجميل، الذي قد يغبطك عليه كثيرون ممن أجزلت لهم الحياة العطاء في حياتهم العملية، وحرمتهم من لحظة سعادة حقيقية يتنفسون خلالها نسائم الحب الذي يظلل حياتك الخاصة، فلا تبدد أمانك النفسي طلبا لأمان غير مضمون، ولا تسمح للخوف من المستقبل بأن يسرق أيامك وزهرة عمرك، فلقد علمتنا الحياة بأن من يغالي دائمًا في التحسب للمستقبل لا يستقر له جانب طوال حياته مهما تحصن ضد الزمن بشتى الاحتياطات، لأن المستقبل الذي يخشاه سيكون هو نفسه حاضره بعد سنوات، فإذا تمكن الخوف من إنسان تجاهه لم يستطع أبدًا أن يسترد اطمئنان قلبه مهما حقق من نجاح، لأنه يحمل معه خوفه من مرحلة إلى مرحلة طوال حياته خوفًا من مستقبل لا يملك أمره سوى الله سبحانه وتعالى. فاصبر قليلًا يا صديقي وانظر وراءك بين حين وآخر لترى الشوط الذي قطعته، ولترضى عن حاضرك وتطمئن إلى مستقبلك، ولا بأس بأن تتذكر دائما قول الشاعر:

اصبري أيتها النفسُ فإن الصَبر أحْجَى ربما خاب رجاءٌ وأتى ما ليس يُرْجَى

وأنت على أية حال لم يخب لك رجاء حقيقي حتى الآن، ولم تأتك الحياة بما ليس يرجى لكنك تسير على الطريق.. وكل شيء يأتي لمن صبر وكافح.. ورضي بما حققه وبما أنعم عليه ربه، ومن كانت له إرادتك لن تستعصي عليه غاية ولن يضل الطريق إلى أهدافه أبدًا بإذن الله.

الأيام السعيدة

أنا يا سيدي واحد من قراء بريد الجمعة.. أقرأ رسائله وأعيش مشاكله وكثيرًا ما فكرت في حلول لها، وتناقشت فيها مع شريكة حياتي، وكنت أتمنى أن أظل مشاركًا من بعيد في مشاكله.. لولا أن الحياة لا تترك أحدًا في حاله.. وهكذا وجدت نفسي أكتب إليك لأروي لك قصتي مع شريكة حياتي.

لقد بدأت حياتي معها منذ سنوات طويلة.. فتزوجتها وهي فتاة صغيرة بارعة الجمال مستكينة مستسلمة للأقدار، حريصة على مودتي وعشرتي.. وبعد سنوات من زواجنا تعطلت عن العمل لأسباب لا داعي لذكرها الآن، وكنا قد أنجبنا ثلاثة أطفال، وطال تعطلي وانقطعت مواردي، حتى أصبحنا لا نجد ما نسد به رمقنا، فصبرت على محنتي ولم تَشْكُ، ولم تؤنبني وكتمت سرنا فلم تبح لأهلها بما نعانيه.. حتى لقد كانت تزور أسرتها في هذه الأيام الصعبة، فيلحظ أهلها ذبول جمالها وجفاف رونقها، ويسألونها عما بها فلا تقول في إلَّا خيرًا ثم يدعونها إلى الطعام فتأبى، مؤكدة لهم أنها غارقة في النعيم وهي لا تحتاج إلى شيء. وبرق قلبها لأطفالها المحرومين فتطعمهم في بيت أبيها.. وهي جائعة.. وتروي عطشهم وهي ظمأى.. ثم نعود إلى بيتي فلا تروي لي شيئًا يجرح كرامتي.. ولا تحكي لي إلَّا ما يحفظ ماء وجهي.

ثم مرت هذه المحنة.. وبدأت حياتي العملية من جديد في عمل مرموق وتقدمت فيه حتى بلغت قمته، وهي على عهدها الزوجة المخلصة الوفية، أما أنا فلم أكن عند حسن الظن بي. فلم أكن وفيًّا لها أبدًا في معظم الأحيان، فعند بدء زواجي منها وكانت فتاة غضة صغيرة في الثامنة عشرة من عمرها، كنت على علاقات متعددة مع غيرها من النساء، وعرفت بذلك زوجتي ورأتني في مواقف كثيرة مع هؤلاء السيدات.. فبكت واحترقت وتألمت لكنها لم تواجهني.. ولم تفضحني.. ولم تشك لأهلها ولم تجعل من سلوكي سيرة يمضغها الأهل والأقارب، وصبرت على نصيبها من الحياة حرصًا على أبنائها وأملًا في انصلاح حالي.. وما كانت تشير إلى هذه العلاقات معي إلَّا عندما يفيض بها الكيل فتعاتبني وتلومني لوم المغلوب على أمره.. وتطلب منِّي أن أرعى الله فيها وفي أبنائي منها.. فماذا كنت أجيبها على ذلك؟ كنت بدلًا من أن أطيب خاطرها.. أو أعدها بالاستقامة.. كنت أعنفها وأغلظ لها القول.. وأتهمها بالكذب وباختراع أشياء لم تحدث فتسكت مقهورة حزينة.

وبعد رحلة العمر وانتهاء طيش الشباب، هدأت ولم تعد لي مغامرات لكني يا سيدي وأعترف لك بذلك، وأرضى بحكمك عليَّ، لم أكن أبدًا رفيق الحياة الطيب لها.. فكثيرًا ما أهنتها وكثيرا ما سببتها واتهمتها بالجهل، وما من مرة أهديت لها شيئًا إلَّا في مرات معدودة وبأشياء ضرورية لها تعد من صميم مسئوليتي عنها كبعض الملابس القليلة في أحيان نادرة.. وبعد أن كبر الأبناء أصيبت زوجتي بمرض السكر وذبل جمالها، وإن لم تذهب كل آثاره فبدأت أضيق بها ضيقًا شديدًا بل أصبحت انظر لها باشمئزاز ولا أعرف لماذا.. هل لأنها كبرت وتعدت الخمسين ولم تعد الفتاة الجميلة التي أسعدتني بشبابها.. أم لأنها كانت الصغيرة الساكنة دائمًا.

لقد كانت في الفترة الأخيرة تعيش على العصائر دون سكر، وتفرم الخس لتشربه لأنها لا تستطيع مضغ أي شيء بسبب تأثر أسنانها بالسكر.. ومع ذلك فلم أكن بها شفيقًا ولا رحيمًا.

والآن توفيت زوجتي يا سيدي منذ شهور.. لم أذق خلالها النوم ولم أشعر بعدها بالراحة أبدًا، وقد بلغت سن المعاش منذ فترة قصيرة بعد أن شغلت مركزًا مرموقا.. وليست مشكلتي الآن هي الفراغ كما قد تتصور أو الوحدة فقط، ولا لأني حزين لوفاتها فقط، إنما لأنها رحلت ولم أكن الزوج الحنون الوفي لها، ولأني لم أقدم لها شيئًا أي شيء خلال رحلة حياتنا معًا، ولم أعوضها عن شيء ولم أشعرها بالسعادة ولم.. ولم.. حين كانت تصحو معي مبكرة لتعد لي طعام الإفطار، وتقول لي الفطار جاهز فأتشاجر معها لأن «صوتها عال» أو لأي سبب آخر، ودائما كنت عنيفًا معها وأسبها بأقذع الألفاظ هي وأسرتها.. لماذا؟ لا أعرف..

الآن أصحو من الفجر يا سيدي.. أو أنهض من السرير بلا نوم فلا أجد من يستيقظ معي ولا من يعد لي طعام الإفطار.. ولا من يسأل عني حتى من أولادي الذين كبر منهم من كبر وعمل من عمل.. وأصبحت لكل واحد منهم حياته.. ولم ينسوا لي سوء معاملتي لأمهم.

والآن أتذكر بمرارة خياناتي لها وأتعذب بها. وأتذكر وفاءها لي وصبرها عليَّ وأتعذب بهما.. وأتذكر لها كيف طردت جارة لها ونحن في محنة البطالة في أولى حياتها حين نصحتها بالطلاق مني والزواج بمن يسعدها، لأنها جميلة وسوف تجد من يتسابقون للزواج منها وكفالة أطفالها.. أذكر ذلك الآن وأتعذب وأحس بلوعة من جحودي لها.. ومن إخلاصها لي، لأني حتى في أيام هذه المحنة كنت أتركها وأخرج لأتنزه مع أصدقائي.. وكانت لي أيضًا بعض المغامرات أيامها..

إنني ألوم نفسي كل يوم وأعذبها باللوم والندم.. وأكتب لك لتعنفني أكثر وأكثر لأني لم أقدر زوجتي هذه حق قدرها وهي على قيد الحياة. كما أكتب لك لتكتب لأولادي كلمة أني كنت مخطئًا مع أمهم.. وأني أحس بذلك وأعترف به وأندم عليه ليصفحوا عني.. ولأعوضهم فقدهم لأمهم.. وأرجو الرد ليتعظ كل زوج يعامل زوجته معاملة سيئة ولأستريح من آلامي.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وماذا يجدي الآن تعنيفك ولومك يا سيدي؟!! يكفيك ما تعانيه من ندم وإحساس بالذنب ووحشة ووحدة، وفقدان للرفيق. فإن كان ثمة لوم فللنفس البشرية التي لا تعرف غالبًا للأيام السعيدة قيمتها إلَّا بعد انقضائها. ولا للبشر أقدارهم إلَّا بعد أن تفقدهم للأبد، وهذه هي حالنا غالبا نحن البشر.. نفضل الندم بعد فوات الأوان أحيانًا على علاج الأخطاء وتدارك الأمور في حينها.. ومع أن الفرصة كانت بين أيدينا.. وكانت الأيام خالية وسعيدة.. والأحباء من حولنا يضيئون لنا حياتنا، فبددنا أيامنا في الأنين والشكوى والتشاحن والصغائر، ثم عندما انفرط العقد وتساقطت حباته عضضنا على شفاهنا ألمًا وحسرة.. وقلنا عن نفس هذه الأيام «يا أيها الماضي الجميل لو عاد يوم منك عشناه وحفظناه وعرفنا كم كنا سعداء فيه ونحن نشكو منه»، لكن الماضي لا يعود يا صديقي بكل أسفٍ ولا تبقى للإنسان بعده سوى الحسرة والحزن والألم على الأيام التي ضاعت هدرا من

عمره، لأنه لم يتعلم الدروس.. ولم ينتهز الفرصة ولم يستمتع بما يبكي عليه الآن.. ولم يؤد للآخرين حقوقهم عليه.. ولم يحقق لهم ما كان يستطيع أن يحققه لهم من سعادة وسكينة بأبسط قدر ممكن من الفهم والعدل وبعد النظر.

ومازلنا نكرر نفس القصة كل يوم، فيقول بعضنا لبعضنا ما قاله هابيل لأخيه قابيل ﴿مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ فيقتل قابيلنا هابيلنا ثم يبكيه ندما ويقول «يا ويلتي» نادمًا كالعادة بعد فوات الأوان، ولا أعني بالقتل هنا جريمة القتل في حد ذاتها، إنما أعني ظلم الإنسان لأخيه الإنسان بصفة عامة، وتجبره أحيانًا على رفيق دربه وشريك حياته.. ثم ندمه بعد ذلك حيث لا ينفع الندم.. ومازلنا أيضًا نذكر ما قاله ذو النورين سيدنا عثمان بن عفان لخاصته حين ضاق حوله حصار الثائرين عليه «أخشى على من يستطيلون أيامي أن يتمنوا بعدي لو كان يومي بمائة سنة!!» فكان ماتنبأ به ومازلنا نكرر نفس القصة ونستطيل بعض أيامنا ثم نتمنى بعدها لو كان يومها بألف سنة.. لكن هيهات أن يعود اليوم الذي كان.. وآسف لانسياقي وراء تأملاتي.. وأعود إلى رسالتك لأقول لك إنني أرجو أن يطهرك ندمك مما اقترفت، وأن يرعى أبناؤك حقك عليهم، مهما كانت الظروف والملابسات، وأن يتعلموا منك هذا الدرس نفسه، لكيلا تصبح التجربة بلاثمن ولكيلا يكرروا نفس الخطأ في حياتهم أو معك أنت شخصيًّا، وليعلموا جميعًا أنهم مطالبون بالرفق بك في محنتك ووحدتك، وبرعايتك بغض النظر عن نوع علاقتك السابقة بأمهم، لأن توتر هذه العلاقة قبل رحيلها لا يبرر لهم إسقاط حقوقك عليهم كأب.. ولا يعفيهم من واجبهم تجاهك.. وإلَّا فسوف يسألون عن كل ذلك أمام العادل الذي لا تزر عنده وازرة وزر أخرى.. مع تمنياتي لهم ولك وللجميع بأن يعوا الدرس.. وألا يفلتوا جميعًا «فرصة الأيام» من بين أيديهم قبل أن تروح وتنقضي.. ولا يبقى في اليد بعدها سوى السراب.. والخواء.. والألم.

للأذكياء فقط

أنا زوجة في الثامنة والعشرين من عمري، متزوجة من أربع سنوات بعد قصة حب جميلة جدًّا، أنا وزوجي طبيبان وكنا زميلين في نفس الكلية، ومتوافقين في الكثير من النواحي، وإذا اختلفنا في شيء فهو لتكميل الطرف الآخر. فمثلا إذا أحب هو الموسيقى كنت أنا بارعة في الرسم، فتجد منزلنا كالحديقة الجميلة الراقصة على أنغام وألوان زهورها. ومشكلتي يا سيدي لا أدري إذا كان زوجي العزيز يشعر بها أم لا، فنحن على مستوى ذكاء قد يكون متساويًا ومرتفعًا بعض الشيء، وفي أول زواجنا كنا نتبارى ليثبت كل منا مقدرته الذهنية في أي شيء.

والحمد لله لم نتنافس على شيء وقد أرجعت ذلك أيضا لفهم كل منا لذكاء الآخر. فأنا أحب رجلا ذكيا لبقا خلاقا، وهو يحبني أيضا ذكية في داخلي مبدعة له في كل أعمالي التي يعود فيها الكثير من النفع عليه.

أقول لك يا سيدي المشكلة التي بدأت أشعر بأطرافها هي أن زوجي بدأ يكذب ويتفنن في إخفاء كذبه، ومنذ أول وهلة في أي كذبة يحكيها أو مشكلة يداريها أشعر بأنه لا يقول الصدق ورد فعلي للآن هو تصديقه.. ولكنني مع توالي الأكاذيب بدأت أخاف أن يمرض بهذا المرض اللعين وهو الكذب، المرض الذي ليس له

علاج في أي كتاب ولو حتى كتب علم النفس، فالمريض والمعالج هو الشخص نفسه.. قوة إرادته.. دوافعه.. تدينه أخلاقه.. شهامته.. احترامه لنفسه وللآخرين وتسألني عن موضوع الكذب فتجده أشياء تافهة جدًّا قد تضحك منها، ولكنها تزداد في كل فترة وقد تتعمق في بعض الأحيان.. وأحيانًا يريد أن يدخل داخل أعماقي ليختبر تصديقي له، وأشعر به يصارع نفسه ويوبخها إذا شك أنني أفهم شيئًا أو حتى تهيأ له وهو يعلم أنني لست بالتافهة أو العبيطة.. وأشعر كثيرًا إنني أريد أن أصرخ في وجهه. بأنني أحبه صادقًا مخطئًا وليس كاذبًا مستقيمًا، وأخاف أن أجرح شعوره وهو الذي تربى على أن الرجل يجب ألَّا يعاب أو يخطئه أحد أو يعيبه مرض، وأن تدارى أخطاء الرجال.

كان هذا هو سلوك أسرته عندما كنت أختلط بهم في فترة الخطوبة، ولكنني الآن في بلد غير بلدهم، وكنت أيامها أشعر بأن زوجي يختلف عنهم جدًّا فهو واضح أمامي بكل عيوبه قبل مميزاته، مثلي بالظبط فهذه هي إحدى سمات شخصيتي إنني أمتاز بالصراحة عن نفسي والوضوح في كل شيء، أكره اللف والدوران لأنه يضيع الوقت، وأنا دائمًا مشغولة بالمنزل وعملي ورسمي الذي أعتبره أجمل هواية في الدنيا.

ماذا أفعل يا سيدي أرجوك ألَّا تعتبر أن هذه مشكلة بسيطة فأنا أؤمن بأن أكبر النيران تبدأ بمستصغر الشرر، وأحب دائمًا أن أعالج أتفه الأمور حتى لا يستفحل الأمر فهذا هو «صميم عملي».. وأرجوك ألَّا تأخذ عني فكرة الطبيبة الجادة التي لا تقوم من بين الكتب وبجانبها كوب القهوة الممتلئ.. لا.. فأنا اختلف عن ذلك كثيرا. فأنا دخلت هذه الكلية خطأ وتخرجت منها بعون من الله.. ولا يربطني بمهنة الطب إلَّا حب الناس فأنا أقوم بعمل حكومي لا يتطلب معلومات طبية بحتة..

وأكرس كل حياتي لبيتي وطفلي ثم هوايتي في أوقات الفراغ.. ثم بدأ يشغلني زوجي بهذه المشكلة التي أحكي لك عنها..

إنني أحاول أن أجمع لك بعض الأمثلة لأكاذيبه.. إنه يختلق قصة بالية واهية ليداري بها أنه أنفق النقود التي خصصها لشراء هدية عيد ميلادي، ويزعم أنه نسى الميعاد بسبب عملية كان يقوم بها، وأجده هو الذي يبدأ في الحديث عن هذا الموضوع مع أنه يعلم تمامًا أنه من غير المهم أن يثقل البيت كل سنة بهدية لي في عيد ميلادي، أو أنني لن أتضايق لو حضر وقال لي كل سنة وأنت طيبة وهديتك السنة دي لم تصل من عند الله للآن أو أي شيء من هذا القبيل.

مثلًا قد يتأخر عن ميعاده ويختلق لي قصة واهية عن أحد الزملاء الذين طلبوا منه مساعدة عاجلة في أمر مهم، ويشعرني أنه لولا وجوده بينهم كانت القيامة ستقوم، وأعلم بعد ذلك أنه كان عند والدته يتعشى ويلبي لها بعض الطلبات.. ذلك في حين أنه يتضايق جدًّا بل يصل إلى حد أنه يمنعني من زيارة أهلي فقط ساعة في الأسبوع، أنا أعلم أن كل منزل له أسراره ومشاكله الخاصة جدًّا وأنه لا يوجد منزل دون مشاكل، ولكن يا سيدي أنا جربت التفاهم وكانت أسرتي كلها تفاهم وحب واحترام. كنا نجتمع على الغداء مع أبي وأمي يحكي كل منا ماذا فعل في شغله أو في مدرسته إلى أن كبرنا.. لم نشعر إطلاقا أن هناك مشكلة في البيت ويجب أن يعلمها بعض الأفراد والباقي لا. لم نخف من أحد. لم يضربنا أحد.. كنا نقول كل شيء بداخلنا وتعلمنا كيف يقول الإنسان لنفسه قل ولا تقل.. كل فرد في منزلنا كانت له هوايته الخاصة. لم يشترك فردان منا في هواية واحدة، ومع ذلك كنا نحترم بعضنا وآراء كل منا فيما يفعله الآخر.. خرج كل الكبت من نفوسنا ولم يعد بداخلها شيء مبهم.. الصراحة والوضوح كانت الصفة التي توصف بها أسرتنا، عندما يخطب أخ لي إحدى البنات أو يتقدم لي شخص. كانوا يقولون عنا إنهم

ناس تفهمهم من أول لحظة، وكانت هذه سبب سعادة الآخرين معنا.. ووجدت هذه الصفة في زوجي في فترة تعارفنا وخطوبتنا فهو مثلي صريح وواضح.. ولكن أسرته كانت دائمًا غامضة.. والدته تكذب كثيرًا وتضحك عندما يكتشف كذبها، ولا تعلق أو تبرر سبب كذبتها.. والده كان رحمه الله صورة من صور الغموض ولا أكثر من ذلك لأنه عند الله.. المهم أنني كنت خائفة منهم وحمدت الله على أنني أصبحت في بلد وهم في بلد آخر، ولكنه قريب وأيضًا لأن زوجي ليس مثلهم، ولكن الذي يظهر الآن أن الجينات الوراثية بدأت تظهر وصفة الكذب التافهة بدأت تتضح. أرجوك أن تدلني ماذا أفعل؟ إنني مؤمنة أن الكذب وإن كان تافهًا أفظع من السرقة، وأنه لا يوجد شيء اسمه كذب أبيض وكذب أسود، وأنه لا يوجد شيء اسمه كذب لا يؤذي.. وأيضًا بدأت ألاحظ أن هناك أناسًا كثيرين يكذبون في مجال عملي. يكذب زملاء لي كذبات كثيرة وكبيرة جدًّا أدت مرة كذبة كذبتها زميلة لنا إلى طلاقها لأنها كذبت على زوجها بأنها كانت عند والدتها في حين أنها خرجت مع زميلة أخرى ونزلا البلد، وعلم الزوج من هذه الصديقة بالمصادفة. وكانت كذبة صغيرة ولكنها أفسدت المنزل وفككت الأسرة.. أرجوك أن تساعدني كيف أدبر هذا الأمر مع زوجي.

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لقد لمست يا سيدتي جوهر المسألة كلها خلال رسالتك بغير أن تشعري.. لقد قلت إنك تربيت في بيت لم يعرف الخوف.. تجمع أفراده علاقات طبيعية سوية

ويعبر كل فرد فيه عن نفسه بحرية، ويمارس فيه كل فرد هواية خاصة يفرغ فيها طاقته ويشعر الجميع بمسئوليتهم المشتركة عنه.. لذلك أفرزت هذه العلاقات السليمة أشخاصًا أسوياء لا يعرفون المداورة والمناورة.. ولا يستسيغون أن يكذب الإنسان لأي سبب.. هذه هي المسألة، إن الخوف هو الأب الشرعي للكذب تمامًا كما أن الاستبداد على المستوى الأسري أو العام هو الأب الشرعي للخوف.. وأسرة تحكم حكمًا استبداديا لا مشاركة فيه ولا فرصة لأعضائها للتعبير عن أنفسهم بحرية.. لابد أن تنجب أفرادًا خائفين.. غير صرحاء ميالين بالطبع للكذب إذا واجهوا أي موقف يتطلب شجاعة أدبية في مواجهته، والكذب فعلًا من أحقر آفات الإنسان وبداية كثير من الشرور.. وهو في المجتمعات المتحضرة آفة خطيرة تسقط اعتبار أي إنسان في نظر الآخرين إذا ما عرفت عنه.. لأنهم في هذه المجتمعات يبدأون عادة بتصديق الآخرين إلى أن يثبت كذبهم، فإذا ثبت ذلك مرة واحدة سقط اعتبارهم للأبد، حتى ليصعب عليهم فيما بعد أن يصدقوهم ولو صدقوا، لهذا تمضي حياتهم ومعاملاتهم أكثر سهولة سواء فيما بينهم كأفراد أو بينهم وبين حكوماتهم كمجتمعات، ذلك أن حكوماتهم تفترض الصدق أولًا في مواطنيها إلى أن يثبت العكس، ويفترض المواطنون الصدق في حكوماتهم إلى أن يثبت العكس لذلك تسير حركة الحياة في هذه المجتمعات طبيعية وسهلة بين أطراف يفترض كل منهم في الآخر الصدق أولًا.

أما في عالمنا الثالث فإن حكوماتنا تفترض الكذب في مواطنيها حتى يثبت العكس، ومواطنونا يفترضون الكذب في حكوماتهم حتى يثبت العكس، لذلك لا تمضي حركة الحياة طبيعية ولا سهلة في مجتمعاتنا، لأنها تمضي بين طرفين متربصين ببعضهما البعض يشك كل منهما في «ذمة» الآخر ويبني تصرفاته على هذا الأساس.

أرأيت إلى أي حد كادت تبعد بنا مشكلتك الصغيرة هذه؟!! لذلك فإني أعود إليها سريعا وأقول لك إن المواجهة الصريحة في حالة زوجك سوف تفقده اعتباره أمامك وتؤثر على علاقتكما معًا، وسوف تتسبب في إثارة مشاكل لا داعي لها.. لذلك فإني أفضِّل حديث الأذكياء مع بعضهم البعض بالتلميحات والإيماءات، وأنتما كما تقولين من هؤلاء الأذكياء لذلك أنصحك بأن تشعريه بطريق غير مباشر بأنه ليس مطالبًا بأن يبرر أمامك تصرفات صغيرة، قد لا تحتاج إلى تبرير، وأنه ليس مطالبا بأن يخفي زيارته لأسرته حتى ولو ضاق بزياراتك لأسرتك ولا بأس من استخدام نموذج «المحاكاة».. كأن تروي له مشكلتك كما لو كانت مشكلة صديقة لك تشكو من زوجها لأنه يكذب عليها بلا مبرر.. وهكذا تلفتين نظره بطريقة لا تجرح رجولته.. وتغرسين الاطمئنان في قلبه فلا يعود في حاجة لمثل هذه الأكاذيب.. أما مسألة الجينات الوراثية وتأثيرها في مسألة الكذب والغموض.. فلا ادعي بها علمًا لكني أعرف معيارًا أكثر بساطة من ذلك.. وهو أنه كلما كان الوازع الديني حيًّا في أعماقه كان أبعد عن الكذب من غيره، ممن كادوا ينسون أن الكذب خطيئة كغيرها من الخطايا.. وأنها أحيانًا تكون أخطر «بقدر» ما يترتب عليها من كوارث.

الحاجز

أنا شاب توفى أبي وعمري 5 سنوات، وتركني مع أمي وشقيقي الأكبر، فتولى أخي أمري. وبعد قليل تزوجت أمي وأقام معها زوجها في نفس الشقة، واستقل أخي بغرفة خاصة، وشغلت أمي بحياتها الجديدة ثم بطفليها اللذين أنجبتهما من زوجها، فأصبحت أنا أقوم لأخي الأكبر الذي ينفق علي بما كان ينبغي أن تقوم به أمي، فأعد له طعامه وأكنس غرفته وأغسل ملابسه وألبي طلباته كما يفعل الخادم مع السيد، بل وأكثر من ذلك. وكان أخي يعاملني بقسوة شديدة فإذا عاد من عمله مرة في الظهر ولم أكن قد أعددت له الطعام، فالويل كل الويل لي حتى أصبح موعد عودته عذابًا لي أترقبه في خوف وقلق، فإذا عاد إلى البيت زاد اضطرابي وخوفي كأنني متهم يواجه قاضيًا سيحكم عليه بالإعدام. وإذا جلسنا معا لنتناول الطعام انهال علي توبيخا ولوما لأتفه الأسباب، فلا أهنأ بطعام ولا يطمئن لي جانب طوال وجوده في البيت فأنا خائف دائمًا. مرتعد دائمًا متوجس دائمًا من الحساب والعقاب، حتى إنني كنت إذا تأخر عن موعد عودته هتف هاتف داخلي لعله مات أو صدم في الطريق، وأجد في نفسي للدهشة ارتياحًا شديدًا لهذا الخاطر الآثم سامحني الله، ثم يعود فيعود إليَّ خوفي وهلعي، وفي وسط هذه الظروف كنت أرى أخوي الصغيرين ينعمان برعاية أبويهما وحنانهما فتغرورق الدموع في عيني، وأسأل نفسي

وأنا صبي صغير لماذا لا يحنو علي أحد مثلهما؟ ولماذا يعاملني شقيقي الوحيد بهذه القسوة؟

ورغم ذلك فلقد عشت أسوأ الظروف وتحملت أسوأ المعاملة وواصلت دراستي بلا تعثر، لأنه لم يكن مسموحًا لي بهذا الترف. حتى حصلت على الدبلوم الصناعي وأديت الخدمة العسكرية.. ثم عملت بإحدى الشركات الصناعية الكبرى وأصبحت شابًا من حقه أن يستقل بحياته، وهنا فقط بدأت معاملة أخي لي تتغير نسبيًا ولكن بعد فوات الأوان. فلقد تركت قسوة أخي علي وأنا طفل يتيم محروم أثارًا غائرة في نفسيتي فلا أجد في داخلي الرغبة في التحدث إليه فأكلف أمي بأن تطلب منه ما أريد نيابة عني، وإذا اضطررت للحديث معه وجدت نفسي أتحفظ معه للغاية لا خوفًا منه، وإنما لأن هناك حاجزًا قائمًا يحول بيني وبين أن أتحدث معه كما يتحدث الأخ مع أخيه، والأغرب من ذلك أنني لا أجد في نفسي الشجاعة الكافية لأن أقول كلمات المجاملة في المناسبات كمبروك مثلًا، أو كل سنة وأنت طيب، وأحاول جاهدًا أن أنطق بهذه الكلمات فلا أستطيع كأن لساني قد أصابه الشلل فأصمت، وانعكس ذلك على علاقاتي بالآخرين فإذا أقرضت شخصًا مثلًا مبلغًا من المال لم أستطع أن أنطق في مواجهته بعدة كلمات أطالبه بها بحقي، فإذا خلوت بنفسي وجدت في نفسي الشجاعة لمطالبته والحديث معه بكل صراحة، وإذا جمعتني جلسة مع زملاء العمل أو الجيران أو الأقارب جلست بينهم صامتا لا أجد في نفسي القدرة على مشاركتهم الحديث.

وقد تزوجت بعد ذلك واستقللت بحياتي، وأنا سعيد بزوجتي لكنني كثيرًا ما أجلس معها في البيت ساهمًا أسترجع ذكريات حياتي المريرة، فتمر الساعات دون أن تصدر عني كلمة حتى ضاقت بي زوجتي وقالت إنها تزوجت من رجل أخرس.

كما تقدمت في عملي حتى شغلت فيه منصبًا أرأس فيه عددًا من العاملين، لكني لا أجد في نفسي الجرأة الكافية لتوجيه أوامري للمرؤوسين لي؛ فأضطر إلى تنفيذ هذه الأوامر بنفسي مما يضر بالعمل، ويضعني في مواقف حرجة للغاية، وأنا الآن في حيرة من أمري فقد بلغت سن السادسة والثلاثين ومازلت أعاني هذا الشعور الخفي، الذي يقيد حركتي وانطلاقي.. فهل ما أعانيه هو مرض نفسي يحتاج إلى العلاج. وماذا أفعل لأتخلص منه؟

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أنت يا صديقي لا تعاني إلّا من فقد الثقة في النفس، بتأثير هذه المعاملة الظالمة من شقيقك خلال طفولتك التعسة. والكارثة هي أن ما يجري في طفولة الإنسان يترك أعمق الآثار على شخصيته طوال رحلة حياته حتى قال بعض علماء النفس: إن معظم سمات التكوين النفسي للإنسان تتحدد بما شهده خلال السنوات السبع الأولى من طفولته، وما يقوم به التحليل النفسي لعلاج بعض المرضى هو أن يعيد الإنسان إلى طفولته عن طريق استرجاع الذكريات وتداعي الأفكار ليستكشف المؤثرات والأحداث التي تعرض لها في سنواته الأولى، وسقطت من ذاكرته أي من عقله الواعي إلى عقله الباطن، فتضغط عليه وتدفعه بغير أن يدرك ذلك إلى سلوك معين أو معاناة من نوع خاص، وحين ينجح التحليل في أن يستعيد المريض هذا الحدث بنفسه يطفو من دائرة اللاشعور ويعرف سبب معاناته.. ويصل إلى الشفاء، لذلك فأنت لا تعاني من مرض نفسي لأنك تعرف بوضوح أسباب الداء، إنما أنت

فقط في حاجة إلى أن تتخلص من مرارات الماضي، وتدرك أن ما جرى قد جرى منذ زمن طويل وانقضت أيامه، وأنه لا فائدة من اجترار الأحزان والرثاء للنفس بعد فوات الأوان، فكل إنسان قد واجه الصعوبات بشكل أو بآخر في حياته إن لم يكن في طفولته ففي صباه أو شبابه أو كهولته.

وأنت الآن رجل مكتمل الرجولة وناجح في حياتك العملية والخاصة، وما تسميه صمتًا يعقل لسانك وشعورًا خفيًّا يقيد حركتك، ما هو إلَّا حياء مبالغ فيه سوف تتخلص من بعضه باستعادتك لثقتك في نفسك واقتناعك بجدارتك بأن تتحدث وتطلب وتأمر مرؤوسيك، وأما عجزك عن الحديث الأخوي مع شقيقك أو مجاملته فهو من أثار قسوته القديمة عليك، لأن التمادي في القسوة يقطع خيوط المودة حتى بين الأشقاء وذوي الأرحام، لذلك نقول دائمًا إن الرفق أولى بالاتباع لأنه أقرب إلى الطبيعة الإنسانية، وإن أحق الناس بالرفق بهم هم الأقربون ومن وضعتهم الأقدار تحت رحمتنا، لكن ذلك حديث آخر فقد فات ما فات وليس من العدل أن تسمح للماضي الذي أشقاك في طفولتك بأن يشقيك في شبابك ورجولتك، فتخلص من آثاره يا صديقي وانفض ترابه عنك.. واستمتع بحياتك وثمرة كفاحك وانس الذكريات الأليمة.. فلولا نعمة النسيان ما صافحنا نصف من نقابلهم الآن بالود والترحاب، ونسعد بهم، ولولا نعمة النسيان لما طابت لأحد حياة، ولعلك لو راجعت نفسك الآن لالتمست لشقيقك بعض العذر، فلقد كانت الحياة قاسية عليكما معًا وليس عليك وحدك، ولعله الآن قد استشعر خطأه في حقك ويحتاج إلى مودتك ويشتهيها كما كنت أنت تطلبها وتتمناها في طفولتك، فلماذا نعذب الآخرين بما تعذبنا به نحن ولو كان هؤلاء الآخرون هم من عانينا منهم قديمًا؟

الغروب

أنا يا سيدي شاب وحيد على 3 شقيقات، كان أبي رحمه الله رجلًا طيب القلب. أما أمي أطال الله عمرها فلا توضع إلَّا في مصاف الملائكة، ولأني وحيد فلقد كنت لأبي وأمي الحياة كلها.. فكنت موضع اهتمامهما دائمًا. وتضاعف هذا الاهتمام لأن حالتي الصحية لم تكن دائمًا على ما يرام، فأنا مرهق دائمًا ومهدود ويتعبني بذل أي مجهود.. وكانت الحلول عندهما بسيطة مثل قلبيهما مزيدًا من الطعام.. مزيدًا من الراحة. مزيدًا من العطف علي ولا شيء آخر.. وطوال دارستي كنت متقدمًا إلى أن وصلت إلى الثانوية العامة وذات يوم لا أنساه كنت في الفصل وسألنا مدرس اللغة العربية وكنت أحبه وأحترمه عن آمالنا في المستقبل؟ فقال أحدنا إنه يريد أن يصبح طبيبًا، وقال آخر إنه يريد التجارة ويعمل بالأعمال الحرة، ويصبح مليونيرا يطوف العالم ويتفرج عليه. وجاء دوري فسألني مدرسي وأنت ماذا تريد لنفسك؟ فقلت ببساطة أريد أن أكون أي شيء. فقال لي سامحه الله عبارة لم أنسها حتى الآن وهي إن طموحي مثل جسمي صغير وضعيف.

ومع أنه لم يكن يقصد جرحي فإن كلمته انغرست في قلبي كالخنجر، إذ ما معنى أن يعيب إنسان على إنسان آخر شيئًا لا يد له فيه كجسمي النحيل الضعيف، ومع

ثقتي في حسن نيته فقد كانت كلمته تلسعني كلما جلست لأذاكر دروسي، وكلما أحسست بالتعب تذكرتها فتجددت رغبتي في المذاكرة، حتى تعرضت للإغماء أكثر من مرة وأنا جالس إلى مكتبي. وأمي تناشدني أن أرحم نفسي وأستريح. وكلل الله جهدي بالنجاح في الثانوية العامة بمجموع 96% .. ويوم ظهرت النتيجة حرصت على أن أسعى إلى أستاذي الذي عيرني بنحول جسمي وأبلغته الخبر، كأني أقول له إن ضعف الإنسان لا يحول بينه وبين تحقيق الأحلام، فأدهشني أنه استقبل الخبر بلا حماس وتركته شاعرًا بالانتصار.

وبدأت صفحة جديدة في حياتي والتحقت بكلية الطب، وتركت مدينتي الصغيرة وجئت إلى القاهرة المزدحمة بالبشر، وواجهت لأول مرة تجربة «الغربة» بعيدًا عن أسرتي وحنان أبوي وشقيقاتي.. وانعكست التجربة علي في الفشل في أول عام من أعوام دراستي بالكلية، وأحسست بضميري يعذبني لأني سأكلف أسرتي الصغيرة تحمل نفقات الدراسة لعام جديد بلا جدوى.. فاعتزمت أن أحمل مسئولية نفسي، وتعلمت حرفة يدوية بسيطة وأتقنتها وبدأت أعمل وأكسب قوتي منها. وتوقفت عن طلب النقود من أسرتي. وبذلت جهدًا كثيرًا في التوفيق بين عملي ودراستي، لكنني لم أستطيع الجمع بينهما بسهولة فرسبت في السنة الثانية أكثر من مرة حتى جاء العام الحاسم الذي لابد من نجاحي فيه أو فصلي نهائيًا من الكلية، وفي هذا العام التحقت هي بنفس الكلية، وكنت أعرفها من قبل فهي شقيقة أحد أصدقائي، وأحسست بشيء ينبض في قلبي تجاهها.. ولم تمض شهور حتى كنا قد ارتبطنا عاطفيا وتلاقت روحانا.. وتأكدنا من أن طريقنا واحد إلى النهاية بإذن الله، وعدت إلى دراستي بروح جديدة وإلى الاستذكار ساعات طويلة حتى يغمى علي من جديد.. وكلما شعرت بالضيق أو اليأس أطل عليَّ وجهها من

صفحات الكتاب بابتسامته الرقيقة فأحس بالدماء تتفجر في عروقي من جديد وبرغبتي في النجاح من أجلها، حتى لا ينقطع الخيط الذي يربطني بها، وهكذا استطعت أن أنجح في العام الحاسم وأن أتجاوز الفشل، وبدأت أيامي تشرق من جديد، وبدأت أحلم بأن أنهي دراستي وأن أعمل وأتقدم لخطبة فتاتي وازداد ارتباطنا عمقًا، وازداد جهدي لإنهاء الدراسة بنجاح. وفي السنة النهائية بدأت ألاحظ أن حالات الإرهاق تزداد عندي وأن جسمي يفقد قوته بعد أي مجهود، وشكوت لأحد أساتذتي مما أعاني فنصحني بإجراء جراحة البواسير خوفًا من أن يكون نزيفها المستمر هو سبب الأنيميا التي أعاني منها، ودخلت المستشفى لإجراء هذه الجراحة البسيطة، وبدأت التحليلات التقليدية، ومضى كل شيء كالمعتاد إلى أن توقف الأطباء فجأة عند نقطة معينة، وطلبوا تحليلات جديدة لا علاقة لها بحالتي، وانخلع قلبي فهذه التحليلات أعرفها جيِّدا بحكم دراستي وأعرف أنها لا تؤدي إلَّا إلى طريق واحد، وبدأت الطبيبة التي تشرف على التحليلات تتفادى الكلام معي على عكس المتبع بين الطلبة والأساتذة في مثل هذه الحالات.

وسألتها بكل خوف الدنيا هل تشكين في شيء، فنظرت إلي صامتة ثم قالت بعد لحظات: انتظر وسنرى ماذا يكون؟

وجاءت التقارير كلها، وسألتها مرة أخرى فلم تجبني سوى بنظرة أسف حزينة، وتجمدت الدماء في عروقي، وعرفت ساعتها المصير يا صديقي. ولا تدري كم كرهت الطب وقتها، وكتمت آلامي في ضلوعي فلم يهتك أحد سري حتى الآن سواك، وأصبحت أفكر كثيرًا في جدوى الحياة وساءت حالتي النفسية وأطلقت لحيتي وفقدت اهتمامي بكل شيء، وبدأت أقطع خيوطي مع الأعزاء كلهم بلا استثناء، وبدأت بفتاتي التي وهبتني الرغبة في النجاح والسعادة فتباعدت

لقاءاتي بها.. وتعمدت مضايقتها كثيرًا حتى ملت احتمالي، وتباعدت زياراتي لأمي بالشهور، حتى تعتاد غيابي عنها وبدأت أهجر الأصدقاء والدراسة وأصبحت زائرًا دائمًا للمعاهد الطبية أقضي فيها معظم النهار أرى في عيون الأطباء الأمل أحيانًا. والأسف في أحيان أخرى، وأمضي الليل وحيدًا ساهرًا أتأمل حكمة الحياة.. وأنتظر لحظة الغروب، وأنظر إلى حذائي أحيانا وأقول لنفسي إن عمر هذا الحذاء الرخيص أطول من عمري.. فمن الغالي يا صديقي ومن الرخيص.

ثم يضيء من داخلي نور شفيف لا أعرف مصدره يهمس لي إنه في هذه اللحظة من الزمان قد يكون هناك في أقصى الأرض عالم منكب على دراساته وتجاربه وسوف يتوصل إلى علاج ناجح للمرض وأن علي أن أتمسك بالأمل.. وأن أنتظر إلى أن يسبق العلم ويصل لإنقاذي قبل الغروب.

فأتفاءل أحيانًا وأتشاءم أحيانًا.. وبين الحالتين تمضي حياتي. إنني لا أعرف لماذا أكتب لك هذه الرسالة.. ولا ماذا أريد منك بعدها لكني أحسست فقط بالرغبة في أن يشاركني إنسان سري الذي لا يعرفه أحد.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن الإنسان يحتاج دائمًا إلى من يشاركه همومه وتأملاته، ولقد أحسنت صنعًا حين نفست عن صدرك بعض ما كتمته فيه، لأن الصحة والمرض من حقائق الحياة

التقليدية ولا يجوز أن يتعامل معها أحد كعار شخصي له ينبغي إخفاؤه وتكتمه.. إذا لا فضل لأحد في صحته ولا ذنب لأحد في اعتلاله. فإذا كنا قد خسرنا في معركة الصحة بعض المواقع، فلا يجوز أن نضاعف خسائرنا باعتلال النفس ومكابدة الوحدة واجترار الأحزان في صمت.

ولقد أسأت إلى نفسك يا صديقي كثيرًا حين تعمدت قطع روابطك بالأعزاء من حولك، وحين تصرفت بنفسية عابر السبيل الذي يستعد للرحيل، لأنه لا أحد يعرف أبدًا ماذا يحمله له الغد، ولم يخلق بعد من يستطيع أن يجزم بقرب حلول الغروب، أو أن يحدد لحظة إنزال الستار، نستوي في ذلك جميعًا الأصحاء منا وغير الأصحاء.

وفي داخل كل منا هواجس سوداء تشده إلى القنوط والشك في جدوى الحياة، لكنه في داخل كل منا أيضًا أنوار داخلية كهذا النور الشفيف الذي تحسه أحيانًا، ترده إلى الاقتناع بخيرية الحياة والتمسك بالأمل مهما كان ضئيلًا.. والتطلع دائمًا إلى غد أجمل وأفضل. مهما كانت آلامنا ومعاناتنا.

فتمسك بهذا النور الشفيف في داخلك يا صديقي ولا تدعه يفلت من بين يديك فالعلم يتقدم كل يوم.. وأجدادنا كانوا يلقون مصيرهم بأمراض تعالج الآن بالأسبرين.. وغدا سوف تصبح أمراضنا المستعصية الآن لهوًا وعبثًا يعالجه أطباء الامتياز بغير حاجة إلى استشارة الأساتذة.

«ويخلق ما لا تعلمون».. وربما يسبق العلم هواجسك ويقدم لك العلاج الناجح قبل أن تستسلم لليأس والقنوط، فاستعد إيمانك بربك وبنفسك وبغدك، وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واستكمل دراستك وتخرج وأعمل واستعد روابطك بكل من فارقتهم. بل واستزد منها وادفع بها عن نفسك آلام الاستسلام

للهواجس والتأملات الحزينة. فالغروب الذي تتحدث عنه هو المصير المحتوم لكل البشر منذ خلق الكون، ومع ذلك فالجميع يعملون ويحيون ويتزاوجون ويتناسلون ويستمتعون بالحياة ويضيفون إليها جيلًا بعد جيل.

فإذا كان لشمس كل إنسان من غروب. مهما بعدت أو اقتربت لحظته، فما معنى أن نفسد لحظات الأصيل الجميلة بالمعاناة والآلام.. وما معنى أن نغمض العين عن جمال الشفق الأرجواني الساحر.. لأنه بعد الأصيل غروب لا مهرب لأحد منه، ونعرفه جيِّدا منذ تفتحت عيوننا على الحياة.

فوق القمة

أنا فتاة في التاسعة والعشرين من عمري، لا أغالي إذا قلت إني جميلة.. لأنني فعلًا كذلك، وقد عشت حياة بسيطة في أسرة ميسورة بين أمي ربة البيت الطيبة المحترمة، وأبي رجل الأعمال الذي ورث عن أبيه تجارة ناجحة، وتمتعت بحب أمي لي وتعلقها بي، أما أبي فلقد كان مشغولًا دائما في عمله فلم تتعد دائرة علاقاتي الاجتماعية بعض الزيارات العائلية مع أمي، أو بعض المرات القليلة التي أذهب فيها إلى النادي لألتقي ببعض الصديقات، إلى أن جاء يوم كانت فيه سيدة طيبة تأتي إلى بيتنا لتساعد أمي في بعض أعمال البيت، وتأخرت عندنا في ذلك اليوم فدق جرس الباب وفتحته فوجدت أمامي شابًا وسيمًا يتفجر رجولة وحيوية، يسأل عن السيدة، وعرفت منه أنه ابنها فدعوته للدخول لكنه رفض حياءً وانتظرها حتى خرجت معه وانصرفا، وأنا مشدودة لا أعرف ماذا جرى لي. وفي الأسبوع التالي جاءت السيدة الطيبة فوجدتني أجلس معها وأتحدث إليها وأنتهز الفرصة لأسأل عن ابنها الشاب، فإذا بها تخبرني بأنه طالب معي في نفس الكلية ويتقدمني بسنة، واكتفيت بما عرفته منها، وفي اليوم التالي بحثت عنه في الكلية حتى وجدته وحييته تحية الصباح فرد علي بأدب وحياء، ثم خفض رأسه فوجدتني أسأله عن الصحة والأحوال فرفع رأسه مندهشا وأجابني شاكرًا، وأنصرف.

وتكررت لقاءاتنا داخل الكلية مصادفة أو عمدًا من جانبي، وبمرور الأيام عرفت كل شيء عن حياته، فعرفت أنه يعمل بعد الدراسة في محل تجاري ليكسب دخلًا يعينه على نفقات الكلية وليساعد به أسرته، وعرفت أيضًا أنه طالب متفوق مجتهد في كل عمل يؤديه، حتى أنه يجمع أسئلة امتحانات السنوات السابقة ويقوم بحلها كنماذج للإجابات ويطبعها ويوزعها على الطلبة ويحقق من وراء ذلك دخلًا بسيطًا كل سنة.

واستمرت زمالتنا على هذا النحو ثلاث سنوات، ازددت خلالها إعجابًا به وبرجولته وباعتزازه بنفسه، وقبيل نهاية عامه الأخير بالجامعة استقر في يقيني أني أحبه من أعماقي، على الرغم من أنه لم يبد من جانبه أية علامة على وجود مثل هذه االمشاعر لديه، وحين اقترب الامتحان سألته عما ينوي أن يفعل بعد التخرج فلم يحر جوابًا، فعرضت عليه أن أحدث أبي بشأنه ليعمل معه، ففاجأني بثورة كالبركان رافضًا ذلك، وانصرف يومها غاضبًا، وعدت لبيتي حزينة وحكيت لأمي ما جرى ففسرته لي بأنه وجد في عرضي ما يمس كرامته. ومضت فترة طويلة لم نلتق خلالها.. ثم علمت بأنه عمل بعد التخرج في عمل كان قد بدأه في الشهور الأخيرة من الدراسة، وراودتني نفسي طويلًا أن استقصى أخباره إلى أن جاءت اللحظة حين زرت والدته والتقيت به هناك، وفي هذه المرة تحدثت معه قليلًا.. فاندفع يعبر لي عن مشاعره المكتومة التي لم يستطع أن يبوح لي بها بسبب ظروفه، وتعاهدنا على ألَّا نفترق، وأن ينتظر اللحظة المناسبة ليتقدم لأسرتي، وجاءت هذه اللحظة بعد عام عندما تخرجت في كليتي. ففاتحت أمي في الأمر فرفضت بشدة وأبلغت أبي الذي ثار ثورة هائلة ولم تفلح كل المحاولات في تهدئته، ولم يسمح لي بمناقشته.. أو محاولة إقناعه، وأسرع بأن وضعني أمام اختيار صعب، هو إما صرف النظر عن هذا الزواج.. وإما ترك البيت ووجدت نفسي حائرة بين إرضاء

أبي.. وبين نداء قلبي الذي لم يخفق طوال عمري إلَّا لهذا الشاب المكافح. وفكرت كثيرًا.. وبكيت أكثر.. وبكت أمي طويلًا وحاولت إثناء أبي عن تشدده لكي يقابلنا في منتصف الطريق أو يتفاهم معنا لكنه تمسك بموقفه بإصرار.

وهكذا وجدت نفسي في الخامسة والعشرين من عمري وبعد حوالي 5 سنوات من الحب العميق لمن اختاره قلبي مخيرة بين أمرين يعز عليَّ أن أفرط في أيهما، هما أسرتي وحبيبي، لكني بعد عذاب طويل لم أجد مفرًا من أن أستجيب لنداء قلبي وكلي أمل في أن يرحم أبي ابنته التي تحبه وأمي الحائرة بيننا ويغير من موقفه ولو بعد حين.

وهكذا حزمت أمري بعد ليال عصيبة قضيتها ساهرة حتى الصباح.. وودعت أمي وأنا أبكي وهي تبكي ثم خرجت إلى بيتي الجديد.. وكان فتاي قد أجر شقة متواضعة وفرشها بأثاث أكثر تواضعًا. وتم عقد القران، وأقام لنا أصدقاؤه فرحًا وزفة لن أنساهما العمر كله، فهو محبوب دائما من كل معارفه وتم زفافنا بين أهله وأصدقائه، أما أهلي فلم يحضر منهم أحد زفافي بكل أسف.

ورغم ذلك فقد بدأنا حياتنا الجديدة ونحن سابحان في بحر السعادة.. فكانت يقظتنا أحلامًا وأحلامنا أنغامًا، ومضت الأيام سعيدة جميلة.. لا يعكر صفوي فيها سوى «غربتي» عن أهلي وأنا أعيش معهم في نفس المدينة.. وكان زوجي ينبوعا من العطف والحنان، فحاول كثيرا أن يصلح ما بيني وبين أهلي، وتحمل في سبيل ذلك الكثير رغم اعتزازه بكرامته، كما حاول كثيرًا أن يخفف عنِّي مؤكدًا لي أنها سحابة وسوف تنقشع.. وأن المياه سوف تعود في النهاية إلى مجاريها.. لكن الحال بقيت كما هي حتى أراد الله لنا أن نغادر مصر كلها ليكون لاغترابي عن أهلي سبب مقبول.. فقد جاءته فرصة للعمل في الخارج، وشجعته عليها وسافرنا معًا،

وحصلنا على شقة هناك وأثثناها، ووفقه الله في عمله كما وفقه من قبل في كل عمل تولاه، وأتم الله نعمته علينا فأنجبنا ابننا بعد شهور من سفرنا، وشكرنا الله على نعمته فأخرج زوجي الزكاة وأرسلها إلى بلادنا لتوزع على من يستحقونها، وأدينا فريضة الحج واعتمرنا وبقينا ثلاث سنوات لا نعود إلى مصر، وكلما جاء موسم الحج أدينا الفريضة بدلًا من السفر لبلادنا، وفي العام الثالث كنا وقوفا بعرفات زوجي وأنا وطفلي الصغير فأحسست فجأة كان تيارًا كهربائيًّا يشدني إلى الناحية اليمنى، فنظرت إليها فإذا بي أرى أبي وأمي اللذين لم تقع عيناي عليهما منذ 3 سنوات بملابس الإحرام، يقفان إلى جواري بالضبط. كأن وجودهما بالقرب منِّي قد خلق مجالًا كهربائيًّا أرسل إشارته إليَّ ونبهني إليهما نظرتُ إليهما ولم أصدق نفسي ولم يصدقا نفسيهما ووجدت نفسي أندفع إليهما وهما يندفعان إليَّ في نفس اللحظة، وفاضت العيون بالدموع الغزيرة. وأبي وأمي وأنا وزوجي حتى وليدي الصغير ترقرقت عيناه بالدمع أيضًا وهو يرى هذا المشهد الغريب، وبكيت حتى اشتفيت، وبكت أمي حتى سالت دموعها أنهارا، وبكى أبي وزوجي حتى تواصلت دموعهما ومن حولنا ينظرون إلينا مشفقين. وحين أدركوا الموقف شاركونا التأثر وقالوا جميعًا في هذا المكان الطاهر تمسح الجراح ويولد الإنسان من جديد، ونزلنا من فوق جبل الرحمة معًا وتمسكنا بأن يقيم معنا أبي وأمي إلى أن يحين موعد السفر، وبعد انتهاء موسم الحج عدنا جميعًا على طائرة واحدة لمصر ودخلنا معًا بيت أبي لأول مرة بعد أكثر من ثلاث سنوات، واستقبلنا الجميع بفرحة كبرى وانطلقت زغاريد الفرح التي لم أسمعها يوم فرحي في هذا اليوم السعيد.

وصفت نفس أبي بعد أن استسمحته، وحقق الله أمنية زوجي المؤمن الصادق في أن يصلح الله ما بيني وبين أهلي، وعشنا أيامًا سعيدة في مصر ثم عدنا مرة أخرى إلى مقر عمل زوجي بعد أن تمسك رؤساؤه باستمرار معهم.

وعدت لبيتي هناك ولأول مرة أجد للغربة معنى آخر غير الذي وجدته في السنوات السابقة، فأنا بعيدة الآن عن أهلي لكنني معهم في كل حين، أكتب لهم الخطابات وأبثهم حبي وأشواقي، وأتصل بهم تليفونيًّا ويتصلون بي في مواعيد دورية والحمد لله على كل شيء.. والحمد لله الذي ثبت إيماننا بأنه بالصبر تتحقق الأماني وبأنه لا فرق بين غني ولا فقير، وبأن علينا أن نرضي الله ولا ننسى نصيبنا من السعادة ومن الدنيا. وأرجو ألَّا أكون قد طلبت الكثير.. فلقد طلبت سعادتي مع من أحبه وطلبت رضا أهلي أيضًا وصبرت حتى حقق الله لي الأمنيتين فهل طلبت الكثير يا سيدي؟

◆

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدتي لم تطلبي الكثير، فمن حق كل إنسان أن يطلب لنفسه السعادة كما يراها محققة لأمانيه، لكنه من واجبه أيضًا أن يسعى لتحصين هذه السعادة ضد عثرات الطريق، برضا الأهل عنه وبتأييدهم لمشروعاته المستقبلية.

فالسعادة الشخصية لا تكتمل إلَّا براحة الضمير.. ولهذا لم تكتمل سعادتك إلَّا حين تخلصت من وخز الضمير الذي لا شك أنك عانيته بسبب تقطع الأسباب بينك وبين أهلك.

والأوفق دائما حين يجد الإنسان نفسه أمام هذا الاختيار الصعب، الذي واجهته هو أن يكافح لنيل رضا الأهل عن مشروعاته وألَّا يخرج على طاعتهم في هذا الأمر إلَّا حين يكون تجنيهم عليه صارخًا ولا يقبله العقل أو الدين، ولا شك أنه لو بذل الإنسان جهده بإخلاص وصبر لنال تأييدهم ولو بعد حين لما اختاره لنفسه لأن

الأمهات والآباء يا سيدتي يستهدفون في نهاية الأمر سعادة أبنائهم كما يتصورونها، فإذا تعارضت الإرادات ولمسوا إصرار الأبناء وصدق رغبتهم فيما اختاروه سلموا لهم بما أرادوا لأنفسهم، إبقاء على شعرة معاوية معهم أو هكذا يفعل الرحماء منهم، لأنهم لا يملكون لأبنائهم الراشدين سوى النصيحة مهما كانت دوافعهم الشريفة ولأن الحياة في النهاية هي خير معلم.

ولكل زمان قيمه ومعاييره التي علينا أن نعترف بها كما نعترف بأن ما يصلح لزمان قد لا يصلح لآخر.

فإذا كان في قصتك الجميلة هذه التي تعلن انتصار الحب والكفاحِ الشريف في الحياة ما يستحق التعليق، فهو فقط في أنك كنت تستطيعين الصبر قليلًا قبل مفارقة أهلك، وأنا زعيم لك بأنك كنت ستحصلين بعد قليل على اعترافهم بحبك وقبولهم لهذا الشاب المكافح الأمين.. ولعل هذا هو خلاصة حكمة الصينيين الشهيرة التي أطلقوها بعد أن عاشوا 5 آلاف سنة يرقبون أحوال البشر «من يمشي هونا.. يمشي دهرا». أي أن بلوغ الأهداف يتطلب الصبر كما يتطلب أيضًا الإصرار.. لكني لا أريد أن ألومك على شيء بعد أن فات ما فات لأني من المؤمنين بما يقوله الشاعر:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

ولأن مشهد اللقاء المؤثر فوق جبل عرفات يمسح كل الأحزان، ويَجب كل الكلام.. ثم لأني أيضًا سعيد برسالتك هذه واعتبرها أنشودة السعادة وسط أنّات المعذبين، فلم لا نحتفل بها كما نهتم بزفرات المهمومين.. ونحن من يصدق عليهم قول الشاعر الإنجليزي شيلي «قد علمتنا الأحزان نظم القصيد»؟

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تعلمنا السعادة أيضًا دروسها.. الجميلة وتعلمنا أيضًا نظم الأهازيج؟

نقطة ضوء

قرأت ببريد الجمعة رسالة (الخاتم الماسي) للأخت المهندسة الكريمة الأصيلة والتي تتساءل في رسالتها: هل كل من اغتنوا بعد فقر تغيروا كما تغير زوجها.. أو فعلوا كما يفعل زوجها الآن.. وهل المال شر أم خير؟

ولعل في رسالتي يا سيدي الفاضل ما يجيبها عن تساؤلها.

أنا من قرية في أقاصي صعيد مصر، نشأت في أسرة فقيرة بل معدمة لا تجد قوت يومها.. وكان والدي الأمي رحمه الله يرغب في تعليمي، والتحقت بالمدرسة الابتدائية بعد مرحلة «الإلزام» وكانت المدرسة الابتدائية تقع بالمركز الذي يبعد عن قريتي بحوالي 18كيلو مترًا، وبجنيه واحد فقط في الشهر كان علي أن أسكن وأعيش وأتعلم وألبس، ولا أذهب لقريتي إلَّا مرة واحدة في الشهر توفيرًا لنفقات السفر، وحصلت على الابتدائية بتفوق وبدأت أشق طريقي بعد دخولي المدرسة الثانوية بإعطاء الدروس الخصوصية للتلاميذ الصغار لأكمل المشوار، وفكرت أن أقفز سنة من عمري التعليمي فدخلت امتحان شهادة الثقافة أيامها نظام «منازل» ونجحت بتفوق.. وسامح الله ناظر المدرسة يومها الذي رفض قيدي بالشهادة التوجيهية أي الثانوية الآن بحجة أن ليس لديه أماكن للتوجيهية، فقد اضطرني

ذلك للرحيل من الصعيد للأسكندرية للالتحاق بالتوجيهية في إحدى مدارسها، وسكنت في أحد الأحياء الشعبية في الاسكندرية في حجرة فوق السطوح.. لها باب وشباك.. ولكن ليس بها باب أو شباك أي أن لها فتحتين للباب والشباك ولكن ليس بهما الباب والشباك الخشبيان، فاستعنت على سدهما بورق الكرتون، وعملت للغرفة بابًا وشباكًا اتقاء لقسوة برد الشتاء.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد.. بل كان سقف الغرفة يتساقط منه الماء في الشتاء كالشلالات إلَّا من جزء قليل المساحة كنت أنام وأذاكر فيه، وكان طعامي في الوجبات الثلاث لا يزيد بأي حال من الأحوال على خسمة قروش، بل كانت تختصر كثيرًا إلى وجبتين في اليوم، ولا يتعدى طعامي الجبن الأبيض والحلاوة الطحينية والفول والطعمية.. وكان لابد من أن أستمر في إعطاء الدروس الخصوصية لأكسب رزقي.

وواصلت الكفاح حتى حصلت على الشهادة التوجيهية والحمد لله ودخلت الجامعة وفيها واجهت مشكلة الملابس.. وسألت الجيران فدلوني على سوق الكانتو في حي العطارين، ذهبت إليه واشتريت بدلة كاملة بـ125 قرشا وحذاء بـ15 قرشا وقميصا بـ10 قروش، أما رباط العنق «الكرافتة» فلم اشترها لعدم معرفتي بفن ربطها، وبدأت الدراسة في الجامعة صباحًا والتحقت في المساء بدبلوم الدراسات التكميلية لتخريج مدرسي الابتدائي بعد دراسة سنة دراسية واحدة، وأصبحت مدرسًا بحوالي تسعة جنيهات أرسل لأهلي منها 5 جنيهات وأعيش بالباقي، لكن الجامعة كانت مصاريفها كبيرة لذلك كنت أستعين عليها بالعمل في المصيف بأحد «الكازينوهات» البحرية.. أغسل الأطباق وأنظف ما يطلب مني، وأشتري الأشياء اللازمة للعمل من السوق وأعمل كل شيء يطلب مني خوفًا من الاستغناء عني.. حتى تخرجت في الجامعة شاكرًا المولى والتحقت بإحدى المصالح الحكومية بالقاهرة، وحين تسلمت أول راتب لي من الوظيفة كان أول ما فعلته هو

تحقيق أمنية قديمة لي، وهي أن أتناول «الكباب» ودخلت أحد مطاعم الكباب في القاهرة ونطقت بالكلمة التي كثيرًا ما سمعت زملائي يتحدثون بها ولا أعرفها.. وحين سألني الجرسون عن الكمية المطلوبة لم أعرف فتصرف هو، ويومها عرفت لأول مرة أن الكباب لحم مشوي وليس نوعًا من الحلوى كما كنت أظن! ومضت بنا الحياة.. وتزوجت بإحدى الزميلات حيث كانت تعمل في إدارة أخرى وتسكن قريبًا من الحي الذي أعيش فيه، وصدقني إنني لم أحادثها ولم أعرف اسمها بالكامل إلَّا عند الخطوبة وعقد القران، لكن الله أكرمني بها فهي سيدة فاضلة قاسمتني الحياة بحلوها ومرها، حتى شاءت إرادة المولى وسافرت للعمل بالخارج ومعي أولادي وعشت هناك أكثر من 15 سنة حتى حصل أولادي على الثانوية العامة، وبعدها قررت العودة للوطن لأكون بجانب أولادي، بعد أن رزقني الله رزقًا طيبًا حلالًا أزكية دائمًا حتى زاد وزاد.

وفي غربتي كنت دائم الصلة بأهلي أصل أرحامي خصوصًا ذوي القربي من الفقراء منهم.. حامدًا شاكرًا المولى في كل وقت، وقد سبق لي منذ سنوات شراء قطعة أرض بأحد الأماكن الراقية بالقاهرة، وقد بدأت فعلًا في استخراج الرخصة لبناء سكن لأولادي، لأن مشكلة المشاكل الآن إيجاد سكن للأبناء عندما يفكرون في الزواج بعد تخرجهم في الجامعة.

لقد أعطاني الله وزادني من نعمه إلَّا أنني مازلت أذكر الماضي بكل ما فيه وأحكي عنه، دائما لأولادي. لكيلا تدور رؤوسهم.. ولكيلا يتعالوا على أحد لأن المال يذهب ويجيء.. ولأن الله خلقنا جميعا من طين.. وهم والحمد لله متواضعون ومجتهدون في دراساتهم ويشاركونني الرأي في كل شيء.

وكلما جمعتنا رحلة إلى مكان من الأماكن الجميلة في بلادنا.. أو إلى الإسكندرية حيث أصبح لي شقة جميلة هناك.. وهفت نفوسهم إلى أكلة كباب في مطعم فذهبنا

إليه.. تذكرت حكايتي معه.. وهممت بأن أرويها لأولادي على المائدة قاطعوني وصاحوا جميعا قبل أن أتكلم ضاحكين: نعرف يا أبي.. أنك كنت تظن الكباب حلوى.. وأنك لم تأكله إلَّا بعد أن توظفت في الحكومة!

فأسكت مبتسماً متعجبًا وشاكرًا في أعماقي نعمة ربي.. وتمسك زوجتي بيدي مبتسمة متعاطفة.. سعيدة.

إني أكتب هذه الكلمات للأخت كاتبة الرسالة لأقول لها كما قلت أنت لها إن عليها أن تواصل الكفاح مع زوجها لإفاقته من غيه، وإعادته إلى الأرض وإقناعه بأنه لا فضل لأحد على أحد بماله وثرائه، وأن عليها أن تقربه من الله لعله يشفيه من نفسه.. ويعيده إلى رشده.. والسلام عليكم ورحمة الله.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هنيئًا لك يا سيدي ما أعطتك الدنيا بعد العناء.. وأهمه في رأيي هو هذه الأسرة المتحابة التي يتبادل أفرادها الحب والإعجاب والاحترام.. إنها أكبر النعم يا سيدي وأفضلها ولتدعُ الله أن يحفظها عليك، وأن يمتعك وأسرتك بالصحة التي بدونها لا يصبح للمال قيمة ولا في الثروة رجاء. لقد أكدت لي رسالتك يا سيدي ما أؤمن به دائمًا من أن الخير دائمًا من عند الله، وأن الشر دائما من أنفسنا.. فلقد كانت ظروفك في مقتبل حياتك أقسي بكثير من ظروف زوج السيدة كاتبة رسالة «الخاتم الماسي».. ثم جاءكما الثراء معًا بعد سنوات الاغتراب.. فأفسد حياته وشخصيته

وسعادة أسرته وأظهر جوهره الرديء.. وجاءك مثله فأضاء حياتك وأسعد أسرتك وأظهر جوهرك الأصيل.. إن النشأة البسيطة هي نفس النشأة البسيطة لكل منكما.. والمال هو نفس المال في الحالتين.. فلماذا اختلف تأثيره بينكما؟

لقد اختلف في رأيي باختلاف شخصيتيكما.. وباختلاف فهم كل منكما لقيمة هذا الثراء الجديد، فلقد تصوره صاحب الخاتم الماسي نوعًا من العظمة لذاته الشخصية ومظهرًا يتمثل في الخاتم الماسي والسيارة والبدلة الثمينة وتعاليًا على الآخرين..

وعرفت أنت أنه نعمة طارئة قد تجيء وقد لا تجيء.. وأنه ليس المهم هو المال وإنما ما نفعله به.. وأنه لا يبقى للإنسان سوى خلقه ودوره في الحياة وصلاته بالأهل والبشر.. وحبه للآخرين وحب الآخرين له.. وكذلك يضرب الله الأمثال يا صديقي فشكرًا لك على رسالتك «البهيجة» هذه على غيره العادة.. فلقد كانت نقطة ضوء لامعة.. وسط دياجير المشاكل التي قرأتها هذا الأسبوع. وما أحوجنا إلى مثلها من حين لآخر لنطَّلع على الجانب الخير من الدنيا الذي قد تخفيه عنا في أحيان كثيرة صعوبات الحياة.

العيون الخضراء

سأبدأ رسالتي إليك يا سيدي دون مقدمات، لأقول لك إنني شاب عمري 37 سنة، تعرفت خلال السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، بفتاة عربية مقيمة في مصر مع أسرتها، وارتبطت بها بعاطفة حب قوية صادقة، فقررنا أن نتزوج، ولم يكن هذا أمرًا سهلًا على الجانبين، فلقد كانت أسرتها تفضل لها الارتباط بأحد أبناء وطنها، كما كانت أسرتي تفضل لي بالطبع الارتباط بإحدى قريباتي أو بنات بلدي، لكننا صمدنا وأصررنا على تحقيق سعادتنا، واتفقنا على أن يقوم كل منا بإقناع أهله بالمبدأ ثم نبدأ الخطوات التقليدية، واستغرق الأمر عدة شهور أدينا خلالها الامتحان ونجحنا.

وذات يوم دعتني فتاتي لمقابلة أبيها وهو تاجر متوسط الحال يقيم في مصر منذ أوائل الستينات، فتوجهت إليه في مسكنه بأحد أحياء القاهرة الشعبية.. واستقبلتني فتاتي على الباب بابتسامة مشرقة، وهمست في أذني قبل أن أدخل بأن أباها صارحها بأن موافقته عليَّ ستتحدد بعد هذه المقابلة، فاضطربت أعصابي ودخلت إلى الصالون وانتظرت حتى جاءني يرحب بي بكرم.. وتحدث معي وسألني عن أسرتي وإمكاناتي، فأجبته عن تساؤلاته وصارحته بأن أسرتي لن تقدم

لي الكثير، وأني سأعتمد على نفسي في بناء حياتي ومستقبلي وتحدثنا طويلًا.. ثم نهض ودعا زوجته للتعرف بي.. فجاءت تسبقها ابتسامتها فعرفت أن فتاتي قد كسبتها لصفها وأن الأمر معلق الآن على قرار الأب، وطال الوقت فأستأذنت في الانصراف ففاجأني الأب بقوله: بل انتظر حتى تتناول طعام العشاء مع أسرة خطيبتك، فلم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أعانقه وأقبله، وهو يضحك ضحكة مجلجلة وزوجته وفتاتي لا تسعهما الفرحة، وانصرفت من بيته سعيدًا وشاكرًا.. وفي اليوم التالي اصطحبت أبي الموظف الكبير بوزارة المالية وأمي إلى بيت الأسرة للتعارف وقراءة الفاتحة. ودخلت فتاتي الصالون فما إن رأتها أمي ببشرتها العاجية وعيونها الخضراء وجمالها الهادئ وابتسامتها الرقيقة حتى هتفت بغير وعي «تبارك الخلاق فيما خلق» وفتحت لها ذراعيها، أما أبي فكان يقول في ختام حديثه مع صهري «إنما المؤمنون إخوة» حين رآها فلم يستطع أن يداري دهشته لجمالها ورقتها، وانتهز أول فرصة التقت فيها عيوننا ليشير لي بيده عن حسن اختياري.

وجمع الله بين قلوب أسرتينا سريعًا فأحب أبي أباها، وصارا صديقين وفيين، ونشأت صداقة عميقة بين أمي وأمها منذ اللحظة الأولى، عمق منها اغتراب أسرة خطيبتي وقلة أقاربها ومعارفها في مصر، وسعى أبي لتعييني وتعيين فتاتي في إحدى الشركات الاستثمارية التي ظهرت فجأة في مصر في أواخر السبعينيات، وقدم لي كل ما يستطيع من عون مادي في حدود قدرته، فاستطعت بعد عامين من العمل الحصول على شقة مناسبة في المعادي الجديدة، وتم زفافنا في حفل عائلي صغير، وبدأت أيامنا الجديدة فأكملت العشرة معرفتي بزوجتي وتكشفت لي أنها أستاذة في الطهو وخصوصًا للأصناف الشامية التي لا نجيدها. وأستاذة في التدبير المنزلي.. وفي الحب ورعاية زوجها، فسعدت بها سعادة لا توصف، أما أمي فكانت لا تناديها إلَّا «بالسنيورة» وأحبتها حبًا عميقًا وأحبتها زوجتي بإخلاص، ووجدت فيها أمًّا

ثانية، ورغم عزلتنا في المعادي الجديدة فلم نشعر بالوحدة ولا بالملل أبدًا. فكانت شقتنا دائمًا تستقبل شقيقاتها الصغيرات فيمضين معنا من حين لآخر بعض ليال.. وكنا نذهب للإقامة مع أبي وأمي بإلحاح من زوجتي، ونذهب كل فترة للإقامة لليلة في بيت أبيها.. وأتذكر هنا حادثة طريفة عندما اشتاقت زوجتي لقضاء ليلة في بيت أسرتها لأول مرة بعد زواجنا فاصطحبتها إليه وأمضيت السهرة مع الأسرة ثم استأذنت لقضاء الليل في بيت أبي القريب.. فقال لي صهري بانطلاقه المعتاد: هذا لن يكون فالرجل عندنا يبيت مع حرمته في المكان الذي توجد فيه، وأنت كذلك. يا فلانة كوني معه دائمًا في بيت أهله أو في أي مكان يذهب إليه، فازددت حبًا له وإعجابًا به.

ومضت حياتنا على هذا النحو الحافل بالمحبة والمسرات العائلية، ثم حملت زوجتي ووضعت طفلة صورة مصغرة من أمها بعيونها الخضراء وبشرتها البيضاء، وأضافت إلى جمالها شيئًا جديدًا هو الشعر الأصفر الذهبي، مع أن شعر زوجتي بني اللون فطارت بها أمي فرحًا وأسمتها «بالخواجاية» لجمالها الأوربي الطابع.

وأصبحت «الخواجاية» محور حياتنا مع نموها.. وبدء حركتها وكلامها.. ثم مع شقاوتها وأمراض طفولتها المعتادة، وأصبح ترددنا على بيت أسرة زوجتي أكثر لأننا أصبحنا نودع طفلتنا كل صباح فيه ونعود في العصر لاصطحابها إلى البيت، بعد أن رفضت الشركة الاستشارية أن تعطي زوجتي أجازة لرعاية الطفلة أكثر من ستة شهور وإلَّا فصلتها.. وفي هذه الأيام عرضت على زوجتي الاستقالة لكي تتفرغ للطفلة لكنها فضلت الاستمرار لفترة أخرى، لأن مصاريف الحياة كثيرة ولم أعترض رغم تفضيلي لتفرغها لكي تتجنب الإرهاق، لا سيما أننا كنا نستعمل المواصلات العامة وسيارات الأجرة، لكن كل شيء كان محتملا في ظل الحب

والتفاهم، فمضت خمسة أعوام سعيدة.. لم ننجب خلالها مرة أخرى رغم إلحاح أم زوجتي وأمي علينا، بأن ننجب شقيقًا أو شقيقة لابنتي لكي يتربيا معًا.. لكن زوجتي رأت أن تؤجل الإنجاب إلى حين تستطيع الاستقالة من العمل وبعد أن نكون وقد وفرنا قدرًا معقولاً من النقود يسمح لنا بمواجهة أعباء رعاية طفلين.

وبينما نحن نخطط لذلك فوجئنا أنا وزوجتي بخطاب من الشركة يخطرنا بكلمات قاسية بأن الشركة ستصفي أعمالها وأنها ستضطر آسفة للاستغناء عن خدماتنا خلال ثلاثة شهور.

ووقع عليَّ الخطاب وقع الصاعقة.. واهتززت له رغم أني كنت قد سمعت بعض الأحاديث المتناثرة عن أن بعض شركات الاستثمار ستصفي أعمالها عقب انتهاء إعفاء السنوات الخمس من الضرائب، الذي يكفله لها قانون الاستثمار، وأما زوجتي فرغم حزنها فقد استقبلت الأمر بهدوء وشدت من أزري وقالت لي إنها كانت عاجلاً أو آجلاً سوف تستقيل.. وإن لدينا من المدخرات ومن مكافأة نهاية الخدمة. ما يكفل لنا الحياة لمدة عامين على الأقل.. أكون خلالها قد وجدت عملاً. ولو اضطررت إلى شراء سيارة أجرة والعمل عليها. وخففت عني كلماتها الكثير ولجأت إلى أبي الذي أحيل إلى المعاش فحاول أن يوجد لي عملاً.. بلا جدوى.

وصفت الشركة أعمالها فعلاً.. وخدعتنا فلم تصرف لنا سوى ربع مستحقاتنا.. ولم أجد مبررا لإنفاق المال والجهد في قضية سيتأخر الفصل فيها وقد لا تثمر ففضلت تركيز جهدي في البحث عن عمل. ودخلت عشرات المسابقات. وعرض على زميل فصل معي من الشركة أن نتشارك في مزرعة دواجن في أرض بعض أقاربه. فدخلت هذا الميدان وبذلت كل جهدي فيه لمدة سنة انتهت بالخسارة وبفشل المشروع بعد أن التهم نصف مدخراتي، ولولا أن زوجتي منعتني من وضع كل مدخراتي فيه لخسرت الجلد والسقط..

ولم تتغير زوجتي مع تغير الحال إنما ازدادت رعاية لي.. وبحكمة فطرية فيها خفضت مصروفاتنا كثيرًا بغير أن أشعر بفارق كبير، واشتريت سيارة أجرة بحال لا بأس بها وعملت عليها وحققت منها دخلًا معقولًا رغم مشاكلها. فأصبحت زوجتي تستقبلني كل مساء بجردل ماء ساخن لأضع قدمي فيه وتجلس هي على الأرض تدلكهما، ومن حولنا طفلتنا «الخواجاية» تلهو وتمرح واستمررت في هذا العمل عامين لم تتوقف خلالهما محاولات أبي مع زملائه السابقين الذين عملوا في الخارج لإيجاد عمل لي، كما لم تتوقف مراسلات زوجتي مع أقاربها في الدول العربية لنفس الغرض.

وأخيرا جاء الفرج على يد مرءوس سابق لأبي كان قد ساعده في الحصول على أجازته للسفر إلى الخارج، وفي تجديدها له أكثر من مرة وأثمرت معه العشرة الطيبة، فأرسل ليستدعيني للعمل تحت رئاسته في إحدى الدول العربية، وفرحت زوجتي فرحًا لا يوصف وسعدت الأسرتان. فبعت سيارة الأجرة وأنهيت الإجراءات وسافرت وحدي لأتسلم العمل وأرتب أموري. وافترقت عن زوجتي وطفلتي لأول مرة منذ جمع الله بيننا، وأقمت في غرفة مشتركة مع زميل آخر لمدة أربعة شهور حتى يتم تعييني ويصبح من حقي الحصول على بدل سكن، ثم حصلت على الشقة وانتهيت من تأثيثها وأنهيت إجراءات استقدام زوجتي وابنتي.. وطلبت من زوجتي إرسال أوراق الطفلة قبل مجيئهما لأحجز لها مكانًا في مدرسة ابتدائية قريبة من سكني، وحجزت لها بالفعل مكانًا ودفعت الرسوم وأرسلت تذاكر الطائرة وحدثتني زوجتي بالتليفون تحدد لي موعد وصولها بعد أسبوعين، وكان شوقي لزوجتي وطفلتي قد بلغ أقصى مداه.. فمرت بي الأيام الباقية كأنها شهور.. وحاولت أن أقطع مللها بإعداد كل ما تحتاجان إليه من مطالب، فاشتريت لزوجتي بعض الهدايا والبارفان.. ولطفلتي عدة لعب كبيرة، ونظفت

الشقة وغسلت جدرانها بالماء والصابون، وجاء اليوم الموعود فرتبت الشقة.. ورششتها بمعطرات الجو وأشعلت فيها عدة أعواد من البخور الطيب، ثم جاءني زميل متزوج تعرفت به في الغربة وتصادقنا جاءني بسيارته ليصحبني مع زوجته لاستقبال زوجتي في المطار والتعرف عليها كعادة من تجمعهم هنا الغربة والوحدة. ووصلنا إلى المطار. ووقفت في مكان المستقبلين أشب على قدمي لأرى زوجتي وطفلتي حين تدخلان الدائرة الجمركية.. ومع كل وافد جديد أتطاول لأبحث عنهما حتى رأيت زوجتي بصعوبة ترتدي فستانا كحلى اللون، فلوحت لها بيدي بشدة لكنها لم ترني.. فقفزت مرة أخرى لأرى ابنتي فلم أرها في زحام القادمين.. وتابعت زوجتي وهي تقف أمام ضابط الجوازات ثم غابت عن عيني في منفذ الجمارك، فأسرعت إلى الباب لأستقبلها ومن خلفي صديقي وزوجته، ورحت أتفحص القادمين واحدا وراء الآخر حتى ظهرت أخيرًا زوجتي تدفع أمامها عربة فوقها حقيبة واحدة، وصرخت من الفرحة واندفعت إليها ثم توقفت قليلا لأني لم أر طفلتي معها.. وكدت أجن من الغضب ربما لأول مرة منذ عرفتها.. إذ كيف هان عليها أن تتركها وحدها في مصر؟ وكيف تتخذ هذا القرار وحدها ونحن نتشارك في كل أمور حياتنا؟ ومع ذلك فقد غلبت فرحتي بلقائها على كل شيء فاندفعت إليها وأمسكت بيديها ووقفنا نترامق ودموعي تترقرق في عيني ودموعها تنساب في صمت على ابتسامتها الشاحبة الرقيقة. وسألتها بلهفة فين الخواجاية؟ فلم ترد.. فسألتها مرة أخرى فهمهمت بكلام لم أفهم منه شيئًا فسألتها بحدة فين الخواجاية؟ فترددت قليلا ثم قالت اللي أخدها من قدامك.. ياخد حبها من قلبك، ولم أفهم شيئًا فكررت نفس الجملة الغريبة ودموعها تتساقط كالمطر فوقفت ذاهلًا أنظر لزوجتي ثم أنظر لصديقي ثم إلى زوجته. كأني ألتمس منهما المساعدة.. فلا أجدها.. ولم أجد شيئًا سوى صديقي يحاول أن يسحبني برفق إلى السيارة وزوجته

تفعل نفس الشيء مع زوجتي، ولفت منظرنا انتباه بعض الواقفين وبعضهم من مواطني زوجتي فشاركوا صديقي دفعي إلى السيارة.. وهم يقولون.. أركب مع صديقك.. إركب.. الله معك. فركبنا السيارة.. وفيها فهمت معنى العبارة الغريبة إنها دعاء مألوف في مجتمعهم للمحزون أن يخفف الله أحزانه بانتزاع حب العزيز الراحل من قلبه.. كما غادر الدنيا. لكن كيف.. ومتى.. وأين وقد تحدثت معها منذ أسبوعين فقط وعرفت كل شيء في الرحلة المريرة من المطار إلى المدينة. ومن بين دموعها وشهقاتها فهمت بصعوبة شديدة أن ابنتي الجميلة بنت السابعة التي كانت تمتلئ نشاطًا وحيوية قد هاجمها مرض غريب بدأ بإرتفاع مذهل في درجة الحرارة ثم.. ثم.. ثم انتهى الأمر في عشرين يومًا ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولاحول ولا قوة إلا بالله فلا حب أغاث ولا مال أجدى ولا شيء رد القضاء الذي لا راد له، وقد نفذ السهم قبل مجيئها بأسبوع.. فرأت عدم إبلاغي به في حينه لتوفر علي أسبوعا من الجحيم. ثم أتت إلي لنتشارك في العذاب كما تشاركنا في السعادة.

ودخلت شقتي التي عطرتها قبل ذهابي للمطار محطمًا منهارًا وكان همي الأول هو أن أغلق بالمفتاح الغرفة التي أثثتها «للخواجاية» لكيلا تراها زوجتي وترى اللعب التي كانت تنتظرها.. وحاول صديقي وزوجته بكل جهدهما أن يصطحبانا للإقامة عندهما في هذه الليلة لكيلا يدعانا وحدنا، لكني رفضت بإصرار وأكدت لهما أني في حاجة للاختلاء بنفسي، وتوالى الزملاء ومعارف الغربة على زيارتنا لتقديم العزاء، واتصل بي أبي وأبوها ليواسياني، وفتحت زوجتي حقيبتها الوحيدة فإذا بكل ما فيها من الملابس السوداء، وخيم الحزن الثقيل على عشنا الذي تصورت أنه سيجمع بيننا لنعزف فيه من جديد أنغام السعادة. وقد مضى الآن شهر ونحن على هذه الحال.. وكل يوم نتعذب لكي ننام ونبتلع أقراص الفاليوم لكي تخمد أفكارنا قليلًا، ثم أصحو في الفجر فيكون أول ما أفتح عيني عليه هو خيال طفلتي

الحبيبة.. بعيونها الخضراء وشعرها الذهبي فأسأل نفسي.. هل أنتزع الله حبها من قلبي لتخف آلامي.. فأجد العكس فأتساءل متى يارب يستجاب الدعاء؟

لقد كنا نقرأ لك ونحن في مصر.. ونتعاطف مع المجروحين الذين تواسيهم بكلماتك، وكم بكت زوجتي وهي تقرأ قصة الشاب الذي فقد أسرته كلها وهي في الطريق إليه في يوم عيد ميلاده، والشاب الذي فقد زوجته الحامل أمام عينيه بعد أن فقد من قبل ذراعًا وساقًا في حادث سابق، وغيرهما من قصص أصدقائك جرحى الحياة كما تسميهم، لكني لم أتصور أن يأتي يوم أنضم فيه إلى قائمة هؤلاء الجرحى. وأن ألتمس عندك كلمة مواساة فهل تقول كلمة لزوجتي التي يكاد يودي بها الحزن، ولا تنام إلا بالفاليوم وتتناوله في النهار عدة مرات، وأنا كذلك حتى أصبحنا مهددين بالإدمان.. وحتى اعتزلنا الحياة فلم نخرج ولا نزور أحدًا ولا نفعل شيئًا سوى اجترار الآلام وتبادل الأحزان والدموع.

◆

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يا إلهي.. كأن معايشة الآلام قد علمتني توقع الأحزان قبل أن تجيء بظلها الرمادي الكئيب.. فمنذ بدأت تشير إلى ابنتك الجميلة وشعرها الذهبي وعيونها الخضراء وتركز عليها أكثر من مرة، وأنا أتوجس خيفة من شر قد يصيبها في نهاية الرسالة، فما إن وصلت إلى مشهد المطار المفجع حتى خفق قلبي معك وأصبحت الهواجس حقيقة محزنة. فماذا أستطيع أن أقول لزوجتك الملائكية الرقيقة ولك أنت أكثر مما قلت من قبل لرفاقكما من جرحى الحياة! لقد بكى أحد الحكماء ولده فقيل

له أتبكي وأنت أعرف الناس بأن الحزن لا يفيد! فقال إن هذا بالذات هو ما يبكيني. وهكذا نفعل بغير إرادة فنبكي ونحن أعرف الناس بأن الحزن لن يرد غائبًا، ولن يعيد راحلًا.. ولا بأس بذلك في حدود الحكمة حتى تستشفى الصدور، ولو تحملنا لكان أفضل.. لكن من يستطيع ذلك إلَّا ذو صبر عظيم؟ إن الابتلاء يا صديقي حق لا مرية فيه. وأكثر الناس ابتلاء في الدنيا هم الأبنياء ثم الأمثل فالأمثل هكذا وكل ما يصيب الإنسان مما لا حيلة له فيه يحسب له ويجزيه الله عنه في الدنيا وفي الآخرة خير الجزاء. وبعد ذلك فلا مفر من أن نواجه أقدارنا بشجاعة، ومن الحكمة أن نحاول تحجيم خسائرنا، فإذا كنا قد خسرنا مالا نستطيع استرداده.. فليس من العقل أن نضيف إلى ذلك ما نستطيع بالإيمان والتسليم بإرادة الخالق منعه من خسائر أخرى كخسارتنا لأنفسنا وصحتنا وسلامة جهازنا العصبي ونظرتنا السليمة إلى الحياة، فنشقى بما خسرنا ما بقي لنا من العمر.. والزمن في النهاية كفيل بمداواة الجراح.. ولكل جذوة ألم أوان تخمد بعده.. وتهدأ ويستجاب الدعاء لا بانتزاع حب الأعزاء من قلوبنا بل بالصبر على فراقهم.. وفي كل ذلك فإن لإرادة الإنسان دورًا عظيماً في مساعدة نفسه على الخروج من المحنة ولولا نعمة الإيمان والنسيان ما تصبرَّ أحد على ما تقذفه به أمواج الحياة من آلام وأمير الشعراء يقول:

وصابرٍ تلهجُ الدنيا بنكبته تخالُه من جميلِ الصَّبْر ما نُكِبَا

وما أكثر من يدبون في الأرض وتخالهم من جميل الصبر ما نكبوا.. فاعتصما بجميل الصبر والتمسا السلوى والنسيان بالخروج من عزلتكما، وبأن تشغلا نفسيكما بزيارة الأصدقاء وباستقبالهم وبالتماس الصحبة والإيناس معهم، وبالمشاركة في النشاطات الاجتماعية المفيدة، وافتحا مسامكما للحياة من جديد.. فإن كانت زهرتكما الجميلة قد ذوت فلسوف تهديكما الحياة باقة من الزهور تنشر

أريجها في عشكما الصغر بإذن الله.. وأنتما شابان مثاليان صنعتما بالحب والكفاح والإرادة حياة سعيدة مثالية.. وجرح الشباب مهما كان غائرًا أسرع في الالتئام من جروح غيرهم، ومثلكما قادر بإذن الله على أن يعيد أنغام السعادة إلى حياتكما ويستعيد الأيام الجميلة الماضية من جديد، لأن كلا منكما قادر على أن يهب السعادة لشريك الحياة وعلى أن يتذوقها، والقادرون على السعادة قلة وأنتما منها فلا تبددا الحلم الجميل في اجترار الأحزان، التي لا تفيد وثقا بالله واعتمدا عليه وسارعا بإنجاب زهرة جديدة تعيد السعادة إلى عشكما، وتذكرا دائمًا أن سيد الخلق أجمعين قد ابتلي في ولده فبكى ولم يقل ما يغضب ربه، وإن أحسن الناس عملًا هم أصبرهم على البلاء كما يقول الشاعر الإنجليزي ميلتون، واسألا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج.. له العتبي حتى يرضى.. ولكما نعم الجزاء إن شاء الله.. ورضوان من الله أكبر ونعم أجر الصابرين.

المحتويات

■كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية ■

1- العيوان الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الثامنة 2008
2- وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثامنة 2010
3-شركاء في الحياة	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2010
4- خاتم في إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة السادسة 2008
5- وحدي مع الآخرين	مقالات	الطباعة السادسة 2008
6- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الخامسة 2008
7- عاشوا في خيالي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
8- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2008
9- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة 2008
10- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة 2009
11- أرجوك أعطني عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2008
12- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001
13- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
14- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2008
15- هو وهي والآخرون	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2009
16- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003
17- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
18- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2007

19- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
20- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2005
21- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2009
22- سائح في دنيا	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
23- أماكن في القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2009
24- لا تنسني	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2013
25- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2014
26- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2013
27- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
28- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2010
29- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2010
30- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثالثة 2010
31- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001

■ أعمال لم تنشر من قبل ■

32- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2012
33- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2011
34- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2010
35- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2010
36- طائر الحب القديم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2015
37- الحب والطارق المجهول	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2015

❋ ❋ ❋

في «طائر الحب القديم» يواصل الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع تأملاته في علاقات الحب، ولماذا تفشل، وماذا يبقى منها إن هي فشلت، وماذا تحتاج في حال نجاحها لتستمر متوهجة كما بدأت. يخرج مطاوع من عرضه وتأملاته لمشكلة الحب إلى أنه ليس مشاعر إنسانية، فقط، تدور وتنمو في الفراغ، بل هي ملخص للحياة الإنسانية على الأرض يدخل في نجاحها أو فشلها عوامل عدة مثل: التربية والثقافة والعوامل الاقتصادية وغيرها، نحن لسنا بإزاء علاقة بين ذكر وأنثى في الحب، بل نحن أمام مقطع مصغَّر للحياة البشرية كلها، يعالجها هنا عبد الوهاب مطاوع بحكمته وخبرته ووعيه وحُنوِّه الإنساني المعروف.

«إنها طبيعتنا القديمة التي تستكثر على النفس دائمًا لحظات السعادة الحقيقية، فتتوجس شرًّا مما قد يعقبها من ألم، وهي طبيعة اكتئابية أكاد أشك في أن المصريين جميعًا يشتركون فيها بدرجات متفاوتة.. لهذا نستجيب غالبًا للحزن بأسرع ما نستجيب للفرح»!



* عبد الوهاب مطاوع 1940 _ 2004
* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة علي أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفي يكتب في المسائل الإنسانية.
* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنساني في الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومي بصحيفة الأهرام.
* صدر له 57 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات في أدب الرحلات.
* صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هي: (أماكن في القلب)، و(لاتنسني)، و(الحب فوق البلاط).

الدار المصرية اللبنانية



للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

